الضلالة عن الحق سبيل للشقاء

Delusion from the truth is a path tmisery.

بحث تقدم به

م. د. رياض حسين احمد

Research submitted by

Dr. Riyad Hussein Ahmed

drydhsyn@gmail.com

الخلاصة

لقد تناولت في هذه الدراسة موضوع الشقاء بالدرجة الأولى، وبيان الأسباب المضلة التي أدت إلى الوقوع في مهاوي الشقاء بالدرجة الثانية، فالشقاء الذي أصاب الأقوام السابقة إنَّما هو كفرهم بآيات الله، وعدم التفكر بخلق السموات والأرض، ولهذا جاء التحذير لهذه الأمة أن تأخذ بعين الاعتبار ما حصل لمن سبقهم، فعسى أن تعتبر وتبتعد عن مهالك السابقين، وخشية أن تهلك نفسها بالشقاء فتصبح من الضالين عن هدى الله تعالى، لذلك هدف البحث إلى دراسة الآية التي بينت أحوال أهل الشقاء من خلال المعنى العام للآية، والأهداف والمقاصد التي احتوتها الآية، ثم بعد ذلك انتقلت إلى بيان أسباب الشقاء التي وقع بها الضالون، ثم بينت في موضع آخر الصفات التي تميز بها أهل الشقاء، وما هي أحوالهم التي تردت في الضلال، وبعدها انتقلت إلى بيان أثر الضلال على الفرد والمجتمع لغرض الوقوف على أهم ما يتأثر به المضل في الأرض، وفي آخر البحث بيَّنْتُ حال الأقوام التي أصابها الشقاء، وما الأسباب التي أوقعتهم في الشقاء، وبعد ذلك بينت في آخر البحث الضوابط التي بها يكون الخلاص من الشقاء، لكي تنتفع بها هذه الأمة؛ لأنها خير درس لها ولغيرها من الأمم، وبعد ذلك ذكرت الخاتمة وفيها التوصيات والنتائج لهذه الدراسة، مع ذكر المصادر والمراجع، وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما فيه خير للإسلام والمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكلمات المفتاحية: الشقاء، الهلاك، الطغيان، الإسراف.

Summary:

I have dealt in this study with the subject of misery in the first place, and the statement of the misleading reasons that led tfalling intthe shafts of misery in the second place, the misery that afflicted the previous peoples is their disbelief in the signs of God, and not tthink about the creation of the heavens and the earth, and for this came the warning tthis nation ttake intaccount what happened tthose whpreceded them, smay it be considered and stay away from the former Mahalk, and fear that perish itself with misery and become one of the lost for the guidance of God Almighty, sthe research aimed tstudy the verse that I showed the conditions of the people of misery through the general meaning of the verse, and the goals and purposes contained in the verse, and then moved tthe statement of the causes of misery that occurred by the lost, and then showed in another place the qualities that characterized the people of misery, and what are their conditions that deteriorated in misguidance, and then moved tthe statement of the impact of misguidance on the individual and society for the purpose of standing on the most important affected by the misguided on earth, and at the end of the research showed the state of the people that hit misery, and what are the reasons Which caught them in misery, and then showed at the end of the research the controls by which salvation from misery, in order tbenefit this nation, because it is the best lesson for it and other nations, and then I mentioned the conclusion and the recommendations and results of this study, with the mention of sources and references, and I ask God Almighty thelp us for what is good for Islam and Muslims, and the last of our prayers is that praise be tGod, Lord of the Worlds, and I pray and greet our Prophet Muhammad (may God bless him and grant him peace) and his family and companions.

Keywords: misery, perdition, tyranny, extravagance.

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم وأعطى، وأضحك وأبكى، علّم الإنسان مالم يعلم وهداه بالتقوى، إن هو استمسك بالعروة الوثقى، لا انفصام لها وبها الهدى، فمن أعرض عنه فله معيشة ضنكا، وبها ضَلَّ وشَقَى، وأُصَلِي وأسلم على نبي الهدى محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين. أَمَّا بعد؛

فإنَّ القرآن الكريم جاء هادياً وبشيراً، هادياً ومُرشداً إلى الصراط المُستقيم، فهو يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين بأنَّ لهم من ربهم فضلاً كبيراً، لذلك فقد حذَّرَ العباد من الإبتعاد عنه؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلى شقائهم وفسادهم، و إذا تأملنا في واقع الأمة الحالي، نجد أنها تتهاوى يميناً وشمالاً، تتقلب بها الرياح تبحث عن منقذ لها، ومنقذها بين يديها، لكنها لم تهوِ إليه فتآمر عليها شرار الخلق فنهبوا عزتها ودينها ومنعوها من الرجوع إلى كتاب ربها، ولكن يا ليت هذه الأمة تعلم أن الشقاء مصيرها، فلم تعد تأمن على حياتها وحياة أبنائها وما أصابها من التفرق والتدهور إلا ما كسبته بيدها، لذلك أدركت أن من أسباب شقاء هذه الأمة وبؤسها هو بعدها عن كتاب ربها، وعدم التزام أفرادها بدينهم، وتركوا أخلاقهم، في سلوكهم ومعاملاتهم، لذلك إختلت موازينهم، وضعفت الأمة بسببهم، وما أصاب الأقوام التي من قبلها إلّا أنها تخلَّت عن أمر ربها، فأذاقها الشقاء؛ لأنهم ضلوا وأضلوا غيرهم بالضلالة، فإذا أرادوا النجاة من هذا الشقاء فعليهم بالرجوع إلى كتاب ربهم، لذلك قررت أن أتناول في هذا البحث والذي عنوانه: (الضلالة عن الحق طريق للشقاء)، وقد رأيت أن أقسمه على سبعة مطالب:

المطلب الأول فقد تناولت فيه الآية القرآنية التي دلت على إصابة أهل الشقاء بالضلالة، مع بيان المعنى العام، والأهداف والمقاصد في المطلب الثاني، أما المطلب الثاني: فقد اخترت أن يختصَّ بأسباب الشقاء واستحقاق العذاب، أمَّا المطلب الثالث: فقد جاء ليبين صفات الذين وقعوا في مهاوي الهلاك، أما المطلب الرابع: فقد اختلف عن باقي المطالب، إذ جاء ليبين أثر الضلال والشقاء على الفرد والمجتمع، وما آثاره عليهما.

وقد بينت في المطلب الخامس: أهم الأقوام التي أصيبت بالشقاء والهلاك، والمطلب السادس، فقد جاء ليبين أسباب شقاء قوم ثمود وما الأمور التي أوقعتهم في رزايا الهلاك، وأوردتهم موارد الخسران والبوار، أما المطلب السابع فقد جاء ليبين الضوابط التي تعين على الخلاص من أمر الشقاء، وقد بيَّنْتُ ذلك مستشهداً بالقرآن الكريم، ومستعيناً بالله العلي القدير، على أن يكون هذا البحث من البحوث التي تبنى على معالجة واقع الأمة الحالي، والذي ينذر بخطر شديد إذا لم تتمسك بكتاب ربها، لذلك فقد جاءت الخطة على النحو الآتي:

أولاً: أهمية الموضوع:

إن أهمية الموضوع تكمن في أمور عدة أوجزها فيما يأتي:

١) إن أهمية الموضوع تكمن في تعلقه بالقرآن الكريم الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

٢) إن هذا الموضوع يساهم في توعية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق والنور، وإبعادهم عن مهاوي الشقاء الذي يستغله الشيطان.

٣) إبراز قيمة ما يملكه الإنسان بتمسكه بدينه وهو أساس السعادة في الدارين.

٤) إن هذا البحث يهدف إلى عدم الاستهانة بالذنوب والمعاصي لأنها السبيل الذي يستدرج العبدَ للوقوع في الشقاء.

٥) الوقوف على أحوال الأمم السابقة وكيف أوقعها الشيطان في مهاوي التردي والانحطاط.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

١) وذلك لبيان حقيقة الشقاء وكيف يمكن للإنسان الوقوع فيه إذا ارتكب وسلك الطرق الخبيثة التي توصله إلى التعاسة والشقاء بقدر ابتعاده عن دينه.

٢) التحذير من الوقوع في المحرمات ومنها الشرك، والكفر، والظلم، والطغيان، وغير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى الشقاء.

٣) معالجة الواقع المتردي للأمة وخاصة أنها وقعت في حبائل الشيطان فكان أخاً لها فساقها إلى كل ما يغضب الله عليها.

٤) بيان الغفلة عن ذكر الله وهي سبب الشقاء؛ لأنَّ الشيطان يفرح بذلك فصدهم عن سبيل الله.

٥) كذلك التنبيه على أن بُعد الإنسان عن الحق وإعراضه عن آيات الله وكفره به وعصيانه هو سبب من أسباب الشقاء، حينئذٍ لا ينفع الإنسان الندم وأنى له الذكرى.

٦) ومن الأسباب الأخرى التي استوجبت اختيار هذا الموضوع هو أنَّ الحياة البشريَّة كلها مرتبطة بالقرآن الكريم فهو أمرٌ لا بد منه لغرض سلوك طريق الخير والسعادة، مع الابتعاد عن طريق الشر والشقاء لكي لا يخسروا حياتهم.

ثالثاً: أهداف البحث:

١) يهدف البحث إلى الوقوف على أمر الشقاء وعلاجه في ضوء القرآن والسنة.

٢) وكذلك يهدف إلى بيان ما يسببه الشقاء من التعاسة والهلاك للإنسان إذا سار في طريق الشيطان.

٣) ومن أهدافه الأخرى فهو يبين أسباب وقوع الأمم السابقة في الهلاك الذي أرداهم مهاوي الشقاء.

٤) كما أنَّه يهدف إلى تنبيه الإنسان من أجل تحصين نفسه من الوقوع في الشقاء، وذلك بتمسكه بدينه وكتاب ربه.

٥) وهذا يدل على أن الاستهانة بالذنوب والمعاصي فهي طريق إلى الشقاء، وإلى الهلاك.

٦) كما أنه يبرز الواقع الذي عاشته الأمم السابقة في ظل العبوديّة والقهر والظلم، وما لحقها من العذاب، فهذا يجعل لهذه الأمة درساً لكي تعتبر وتعود إلى كتاب ربها وإلى دينا.

٧) من أجل ذلك أردنا أن نقف على حقيقة الشقاء وما يسببه من عذاب وقهر وتردي وانحطاط، فهذه كلها إن لم تعالج فقد تسود في هذه الأمّة فتكون عرضة للإنهيار في ظل الواقع الحالي له ولأفراده.

٨) وعلى هذا الأساس فقد نقل لنا واقع هلاك الأمم السابقة بتزيين الشيطان لهم أعمالهم، فهذا يوجب الحذر منه ومن أفعاله، ومن أجل إنقاذ هذه الأمة.

٩) لقد هدف البحث الى تربية الفرد على الأخلاق التي أرادها الإسلام وعدم الوقوع في المهالك التي تؤدي إلى الشقاء.

رابعاً: منهج الباحث:

١) لقد اتبعت المنهج الاستقرائيّ في دراسة الآية، مع بيان المعنى العام لها، والوقوف على أهدافها ومقاصدها، مع ذكر الآية ورقمها في الهامش.

٢) تفسير الآيات بالقدر الذي يخدم الموضوع، من خلال كتب التفسير المعتمدة.

٣) تخريج الأحاديث من مظانها، مع تدوين ذلك في الهامش.

٤) الإستدلال بأقوال العلماء المختصين بمجال التفسير، مع الاكتفاء بذكر اسم المؤلف، والجزء والصفة، لعدم إثقال الهامش.

خامساً: يتكون هذا البحث من مقدمة وثمانية مطالب، مع الخاتمة وما فيها من توصيات، وقائمة المصادر والمراجع، لذلك كانت الخطة على النحو الآتي:

المطلب الأول: الضلالة شيمة أهل الشقاء.

أولاً: المعنى العام.

ثانياً: الأهداف والمقاصد.

المطلب الثاني: أسباب الشقاء واستحقاق العذاب.

- التكذيب بآيات الله.
- سبقت عليهم الضلالة.
- الاستهزاء بالدين وبالمسلمين.
- إنكارهم للبعث والجزاء.
- طلب اللذات المحرمة.
- التمني وطلب العودة إلى الدنيا.

المطلب الثالث: الصفات التي وصفهم الله تعالى بها في معرض الذم.

- إفتراء الكذب على الله.
- إنَّهم يُعرَضُون في موقف الذل، والهوان، والخزي، والنكال.
- كونهم ملعونين من عند الله.
- إنَّهم يصدُّون عن سبيل الله.
- كونهم كافرين.
- كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله.
- ليس لهم من دون الله أولياء.
- مضاعفة العذاب.
- عدم استطاعتهم السمع ولا البصر.
- جلبوا الخسارة لأنفسهم.

المطلب الرابع: الضلال وأثره على الفرد والمجتمع.

- التكبر في الأرض.
- الطبع على القلوب.
- اتخاذ اللهو واللعب ديناً لأنفسهم.
- ارتكابهم صفة الكذب والنفاق.

المطلب الخامس: الأقوام التي أصابها الشقاء والضلال، شقاء قوم ثمود.

- المعنى العام.

المطلب السادس: أسباب شقاء قوم ثمود.

- التكبر والطغيان.
- إصرارهم على العناد.
- الظلم.
- القتل.
- إكثار الفساد.
- الكفر والتكذيب.
- استحباب العمى.
- التقليد الأعمى لآبائهم.

المطلب السابع: الضوابط المستنبطة من القرآن لغرض علاج أمر الشقاء.

- الإيمان بالله تعالى.
- الثبات على ذكر الله.
- الاستقامة على طريق الحق.
- الخوف والخشية من الله.
- الإسراع في الأعمال الصالحة.
- التفكر في نعم الله.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الابتعاد عن الفواحش.
- عدم طاعة الشيطان.

المبحث الأول

إجتماع الشقاء مع الضلالة

قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾[1]

المطلب الأول: الضلالة شيمة أهل الشقاء:

أولاً: المعنى العام: لقد غلب على الظالمين الشقاء؛ لأنهم أحبوا اللذات والشهوات فأبعدتهم عن دين الله، فكانوا قوماً ضالين، **قال القرطبي:** «إنهم قالوا غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة؛ لأنهما يؤديان إليها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾[2]، وهذا يودي بدوره إلى النار، أوما سبق علم الله من شقاوتهم الأزلية، وقيل: حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق، فكنا في فعلنا هذا ضالين عن الهدى وطريق الحق، وهذا ليس اعتذار منهم إنما هو إقرار منهم؛ لأنهم طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت، فإن عدنا إلى الكفر فإنا ظالمون لأنفسنا بالعودة إليه، ولكن جاءتهم الإجابة بأن اخسئوا فيها واقعدوا في جهنم كما يقال للكلب: اخسأ، أي: أبعد، خسأت الكلب خسئاً طردته، وخسأ الكلب بنفسه خسئاً، يتعدى ولا يتعدى، وانخسأ الكلب أيضاً، فوالله ما يتكلم القوم بعدها بكلمة، وما هو إلا الزفير والشهيق من نار جهنم، فشبهت أصواتهم بصوت الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق»[3]، وهذا الذي أصابهم أبعدهم عن الهدى، فضلوا عن طريق الحق حتى وقعوا في الضلالة، **وبين ابن كثير:** «أن هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والمعاظم التي أوبقتهم دار الفناء، ألم تكن آيات الله بينة واضحة لكم، وجاءتكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزالت شبهتكم، ولم يبق لكم حجة، لقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾[4]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٥٣ - ١٥٤.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٥.

لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾[1]، ولهذا قالوا: كنا قوماً ضالين من بعد أن قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها، فأرجعنا يا رب إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، ولا سبيل لكم للخروج منها لأنكم أشركتم بالله إذ وحده المؤمنون، أمكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي»[2]، فاليوم تجزون عذاب الهون الذي وعدكم ربكم؛ لأنكم رضيتم بالذل والهوان والخسران.

ثانياً: الأهداف والمقاصد لهذه الآية: إن لهذه الآية أهدافاً ومقاصد تدور حول أعراض الكافرين عن الحق؛ لأنهم أتبعوا الضلالة والشهوات التي آلت بهم إلى الضياع والإنحراف والشقاء الذي هو سبب الهلاك، نذكر منها على النحو الآتي:

(١) دلت الآية على أنَّ ما أصابهم من الشقاء هو بطلب اللذات المحرمة، وخروجهم عن العمل الحسن إلى العمل السيء الذي ساقهم إلى هذه الشقاوة، وطلب تلك اللذات حاصل باختيارهم وإقرارهم، وهذا الضلال الذي جعلوه كالعلة في إقدامهم على التكذيب، وما ذلك إلا خلق الداعي إلى التكذيب[3].

(٢) المكوث في جهنم أذلاء صاغرين لا رجعة لهم إلى الدنيا؛ لأنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين فأذاقهم الله ذلك العذاب[4].

(٣) بيان أنَّ الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، في العمل هو سبب الشقاء الذي أوصلهم إلى التوبيخ، والذل، والخسارة، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر، فهذا أشد وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم[5].

(٤) مثلت حالة اختيارهم لأسباب الشقوة بدل أسباب السعادة بحالة غائرة بين السعادة والشقاوة على نفوسهم، وإضافة الشقوة إلى ضميرهم لإختصاصها بهم حين صارت غالبة عليهم؛ لأنَّ الضلالة من شيمتهم وبها قوام قوميتهم؛ لأنهم يظلمهم تجاوز العدل والإنصاف.

(٥) بيان أن سبب حالتهم هذه تبين أنهم لهو عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر؛ لأنهم سخروا منه لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان إتباعهم إياه سبب السُّخرية بهم فكيف يرجى

---

(١) سورة الملك: الآيات ٨ - ١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ١٤/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) تفسير المراغي: ٦٠/١٨.

(٥) تفسير السعدي: ٥٦٠/١.

من هؤلاء التذكر بذلك الذي هو من دواعي السخرية بأهله[1].

(٦) إن الله تعالى بعث إليهم الرسل تبلغهم، وتنذرهم وتتلوا عليهم آياته، لكن ما سبق في علم الله من شقاوتهم الأبدية، غلب عليهم، فكذبوا الرسل ليصبحوا إلى ما سبق في علمه جل وعلا، من شقاوتهم[2].

وما نراه أن الله تعالى بين لعباده طريق الخير والشر، فطريق الخير قد أفلح سالكه، أما طريق الشر فقد خاب سالكه؛ لأنه لم يناله منه إلا التعاسة بقدر ما قصر عن طريق الحق، وما فرط في جنب ربه حيث متع نفسه بالملذات والشهوات التي أغضبت الله تعالى عليه، فإنه في هذه الحالة إتبع طريق الشيطان المضل المبين، وهذه الضلالة هي سبب شقائهم وتعاستهم، والله أعلم.

المطلب الثاني: أسباب الشقاء واستحقاق العذاب:

لقد استحق الضالون العذاب بسبب بعدهم عن الحق وإعراضهم وكفرهم بآيات الله التي جاءتهم فصموا أسماعهم عنها، وعموا أبصارهم فكانوا ظالمين، لذلك فهناك أسباب كثيرة للشقاء نذكر منها على النحو الآتي:

(١) **التكذيب بآيات الله:** لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾[3]، «وذلك لما أوفاهم ما يستحقونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم، فجاء بعد ذلك في عقبه تذييل يجمعها في أنها افتراء على الله وتكذيب بالحق، ثم جزائهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أن النار مثواهم، لذلك افتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله وكذبوا بالحق توجيهاً للأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم حتى إذا أجادوا التأمل واستقروا في أحضان الظلمة واستعرضوا أصنامهم تيقنوا أن ليس ثمة ظلم أشد من ظلم هؤلاء الذين كانوا أشد الظالمين ظلماً؛ وذلك لأن الظلم هو الاعتداء على أحد يمنعه من حقه وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه ويعطيه من لا يستحقه، ومدار أمور أهل الشرك أنهم على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول، وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والافعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب النبي ﷺ بما هو نكران المعجزة التي يقتضيها العقل[4]، وعلى رمي الرسول ﷺ بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتاناً وكذباً فكان مجموع الأمرين أنهم وصفوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها فكانوا أظلم

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي: ٥/٣٥٨.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٢١/ ٣٤ - ٣٥.

الناس؛ لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول، فالكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الإفتراء للدلالة على أنهم يعتمدون الاختلاق تعمداً لا تخالطه شبهة، وتقيد تكذيبهم بالحق وذلك لدمج ذم المكذبين بنكران نعمة ارسال الحق اليهم التي لم يقدروها قدرها، فكان ايذاناً اجمالياً لجزاء فضيع يترقبهم، وهو جهنم مثوى للكافرين[1]، فهذا مقدمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكذبهم وكفرهم ومرحهم، وهو ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم إذا ارتقى من صفة جزائهم على اشراكهم وهو شيء غير مستغرب ترتبه على الشرك وتحقير الهتهم التي كانوا يعبدونها مع بطلانها[2].

وأضاف: «بأنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء لهم من غضب الله فلما حق عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكروا بما كانوا يزعمونه فقال لهم: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾[3]؛ وذلك لأنهم غابوا عنهم لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً»[4]، «وكذلك من أسباب شقائهم وخسرانهم تكذيبهم بآيات الله، والمراد منها قدحهم في معجزات النبي ﷺ، وطعنهم فيها وإنكارهم كون القرآن معجزة ظاهرة بينة، فهم لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان»[5]، «ولما تبين لحالهم بظهور الفساد بسبب تكذيبهم وفساد أقوالهم بين لهم سبحانه هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾[6]، أي: كان عاقبة سوء أعمالهم وهم قوم نوح وعاد وثمود؛ وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾[7]، أي: آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[8]، أي: قلل رزقكم، ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: «هو أعدمكم وكم أعدم من قبلكم، فكأنه أعطاكم الوجود والبقاء، ويسلب منكم الوجود والبقاء، أما سلب البقاء فبإظهار

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٤/٢٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٤/٢٤.

(٣) سورة غافر: الآيات ٧٣ - ٧٤.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٥) مفاتيح الغيب: ٥٠١/١٢.

(٦) سورة الروم: الآية ٤٢.

(٧) سورة الروم: الآية ٤٠.

(٨) سورة الروم: الآية ٤١.

الفساد، وأما سلب الوجود فبالإهلاك، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء؛ لأن الوجود أولاً ثم البقاء، وعند السلب قدم البقاء، وهو الاستمرار ثم الوجود، فالإهلاك كان سبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة»[1]، «فهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله وجادلوا بها فما كان هذا إلا الكبر العظيم في صدورهم، والسبب أنهم بذلك طلبوا الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة، فلو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المكذبين المتمردين، ليست لها إلا الهلاك والبوار والشقاء، مع أنهم كانوا أكثر عدد ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخرين، لكنهم لم يستفيدوا منها إلا الخيبة والخسارة والحسرة والبوار، والشقاء الأبدي في دار القرار»[2].

(٢) **سبقت عليهم الضلالة:** لقد سبق في حكم الله أنهم ضالون باتباعهم لأنفسهم ولم يهتدوا بها، لذلك سبق عليهم العذاب والضلال فقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾[3]، «أي: ومن صد عن هذا الحق بإعراضه عن آياته في هذا القرآن، وحججه فيه بآياته في الأنفس والآفاق، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة، فأنا لست عليكم بوكيل من عند الله بأموركم، ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقوتي من الكفر والعصيان، وليس عليّ هداكم، ولا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، وإنما أنا بشير لمن إهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أعذر من أنذر»[4]، فمن ضَلَّ عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، فلا أحد يحمل ذنب أحد، لقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[5]، فلا يجنى جانٍ إلا على نفسه[6]، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ

(١) ينظر: تفسير الرازي: ٢٥/ ١٠٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٣) سورة يونس: الآية ١٠٨.

(٤) تفسير المنار: ٤٠٢/١١.

(٥) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٦) تفسير إبن كثير: ٤٩/٥.

(٧) سورة فاطر: الآية ١٨.

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1]، «فهذا إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزار أخرى بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً»[2]، «وبعد أن كذبهم في قولهم ولنحمل خطاياكم، وكشف كيدهم بالمسلمين عطف عليه ما أفاد أنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين وهم الأقوام الذين أضلوهم وسولوا لهم الشرك والبهتان على وجه التأكيد بحملهم ذلك، فذكر الحمل تمثيل، والأثقال مجاز عن الذنوب والتبعات، وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة بحال الذي يحمل متاعه وهو موقر به فيزداد حمل أمتعة أناس آخرين، وإن الأثقال المحمولة مع أثقالهم هي ذنوب الذين أضلوهم، ولكنهم سيسألون يوم القيامة عما كانوا يفترون تذييل جامع لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوه من الإفك والتضليل سواء ما أضلوا به أتباعهم وما حاولوا به بتضليل المسلمين فلم يقعوا في إشراكهم، وقد شمل ذلك لفظ الإفتراء، كما عبر عن محاولتهم تغرير المسلمين بأنه فيه كاذبون»[3].

(٣) **الإستهزاء بالدين وبالمسلمين:** لقد زعم هؤلاء أنَّ الإستهزاء بالدين هو نصرة لهم على الحق، لكنهم غلبوا أمرهم بالخداع، لا يبتغون إلا الحياة الدنيا، التي غرتهم فأصبحوا منافقين، «وهذا حال المنافقين دائماً، يلقون الناس بوجهين، وجه يظهر الحب والمودة، ووجه يضمر السوء والشر، إنهم مع أهوائهم الضالة، ونفوسهم المريضة، التي كانت لأهوائهم منتجع، وكان لتلك النفوس مستراح، فهم بذلك يتقلبون مع كل ريح فيها ربح لهم، ويطعمون من مائدة تكون شياطينهم فيها حاضرة، وهم رؤوس النفاق فيهم، وأصحاب الأمر والتدبير عندهم، فهؤلاء ما ربحت تجارتهم فهي توكيد لخسرانهم وضلالهم، إذ قد لا يربح التاجر في تجارته، ولكن ذلك لا ينقص من ميزانه الخلقي مثقال ذرة، من عدم ربحه أو خسارته، لأسباب لا يدله فيها، ولكنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والشقاء في الدنيا والآخرة، فهم مغبونون في تلك الصفقة التي عقدوها، ولو جرت عليهم كثيراً من حطام الدنيا؛ لأنهم خسروا أنفسهم، وذلك هو الخسران المبين، فهو خسران محقق، وغبن فاحش، يملأ النفس حسرة وندامة»[4]، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾[6]، لذلك أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك في يوم

(١) سورة العنكبوت: الآية ١٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٠/٦.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢١/٢٠.

(٤) التفسير القرآني للخطيب: ٣٥/١.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٤.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٥.

القيامة[1]، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[2]، «فيقول لهم المؤمنون أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في العذاب، فتنتم أنفسكم بالكفر والمعاصي وكلها فتنة، وتربصتم بمحمد الموت، قلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار، وتتخلصوا من النفاق، ثم شككتم في وعيد الله، ثم بنبوة محمد ﷺ، وشككتم بالبعث والقيامة، غرتكم الأماني الباطلة التي تريدون بها نزول الدوائر بالمؤمنين حتى جاء أمر الله تعالى، مازلتم في خدع الشياطين وغروره حتى أماتكم الله تعالى»[3]، «فهؤلاء يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة؛ وذلك لأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط، حين يسارعون في الكفر تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، فأراد الله أن لا يرحمهم بسبب كفرهم بآياته، فحبطت أعمالهم بما إستحقوه من الذنوب والمعاصي»[4].

(٤) **إنكارهم البعث والجزاء:** إنَّ إنكار البعث تكذيب لله تعالى في آياته التي ذكر فيها البعث والحشر والنشر، فهذا يخرجهم من الإسلام؛ لأنهم أهدروا القاعدة التي تقتضي على مجازاة الإنسان على ما قدمه طوال عمره، لقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[5]، «فإن إنكارهم البعث والجزاء وما يترتب عليه من فساد الفطرة المفضي إلى الشرور الكثيرة، فإنَّ الكفر بالبعث والجزاء واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة يجعل هم الكافر محصوراً في الإستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية، كالجاه والرياسة، والعلو في الأرض ولو بالباطل وهو ما يسمونه الشرف، ومن كان كذلك يكون في إتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقر والقردة والخنازير، وفي إتباعه لهواه في لذاته الغضبية الأخرى أصعب وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة كالذئاب والنمور، وفي إتباعه لهواه ولذته النفسية شراً من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضاً، لا يصدهم عن باطل ولا شر يهوونه إلا العجز، ولا يرجعون إلى حكم يفصل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق، وطالما غشوا أنفسهم وفتنوا غيرهم في هذا الزمان بما كانوا من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغي والعدوان الذي كان يصول به قوي الأمم على ضعيفها»[6]، وكذلك الحكومات الجائرة على رعيتها، فزعموا أن الحضارة

(١) تفسير ابن كثير: ٩٤/١.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٣.

(٣) تفسير الرازي: ٤٥٩/٢٩.

(٤) البحر المحيط: ٣/ ٤٤٢ - ٤٤٣.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٣٧.

(٦) تفسير المنار: ٧/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

المادية والعلوم الفنون البشريّة هي التي تفيض روح الكمال على الإنسان إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء، ولا بالإله الديان، وذلك بما إجتمعت عليه أمتهم ودولهم في ذم الحرب، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم، فزعموا أن الباعث على ذلك حب الإنسانيّة، والرغبة في العروج بجميع البشر إلى قمة السعادة الدنيوية، فما بال هؤلاء يقومون إلى استذلال الأمم الضعيفة ويسخرونها لمنافعهم وتوفير ثروتكم يعتبر حق، لغرض استعباد الناس ومن أجل إنكار البعث والجزاء الذي أصابهم بالشقاء الأبدي»[1].

«لذلك فإنَّ نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعباً ولهواً يعبث به العابثون، أو يتشاغلون ويتسلون به عن الأكدار والهموم، وأن تلك الدار للذين يتقون الشرك والشرور المحرمة خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من اللعب من قصر مدته، وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعاً لألم الهم والكدر، أو ضجر الشقاء والتعب»[2]، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾[3]، ولهذا لو كان نظرهم بعيداً لاختاروا الآخرة ولكنهم قصروا نظرهم إلى قريب فأبعدهم ذلك عن السعادة؛ لأنهم أصحاب الشقاء والضلال، والله أعلم.

(٥) **طلب اللذات المحرمة:** لقد غلب على النفوس المريضة حب الدنيا وشهواتها التي غلبتهم فكانوا لها مطيعين صادين عن سبيل الله من آمن به، وهذا يدل على فساد عقولهم، ومرض نفوسهم الخبيثة التي جعلتهم في ضلال دائم، «وهذا هو حال الأشقياء الذين طلبوا الدنيا وملذاتها المحرمة فأصابتهم بنكدها وحسرتها على ما قدموا من أعمال كانوا يحسبونها خيراً، لكنها كانت سبباً لعذابهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾[4]، «فهذا حال الأمم اليوم فكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر فيما بينها، يسود الناس فيهم القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا أرض، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر يرتقبه مستقبل كله نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال، إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»[5]، «وهكذا يمضي حال الأمم بدون الإيمان فحل عليهم ما كانوا يعلمونه، فقد تبين أن أهل

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٨/٧.

(٢) ينظر: تفسير المنار: ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٥) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٣٩ - ١٣٤٠.

القرى لا عهد لأكثرهم يتمسكون به، ويثبتون عليه، إنما هو الهوى المتقلب، والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم، منحرفين عن دين الله وعهده القديم، وهذه ثمرة التقلب، ونقض العهد، واتباع الهوى، ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله، مستقيماً على طريقته مسترشداً بهداه، فلا بد أن تتفرق به السبل، ولا بد أن ينحرف، ولا بد أن يفسق، وكذلك كان أهل القرى بهذا الحال»[1]، «فإذا انفتحت عليهم الدنيا بملذاتها وفرحوا بها انقلب ذلك الفرح حزناً، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾[2]، وهذا حالهم بما كذبوا رسلهم، وظلت أنفسهم غارقة بالشهوات، فتح الله عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الإبتلاء، والقرآن يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع والسلطان، متدفقة عليهم كالسيول بلا حواجز ولا قيود، ولا عناء ولا كد، وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة واستغرقوا في المتاع بها والفرح بها، بلا شكر ولا ذكر، ضلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم عليهم، وعدم خشيته وتقواه، فانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الإيمان، لاهية نفوسهم باللهو والمتاع، فنتج ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، مع فساد الحياة كلها، عند ذلك جاءهم العذاب بغتة فأخذهم على حين غرة وهم في سهوة وسكرة، فإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد فيهم»[3].

(٦) **التمني وطلب العودة إلى الدنيا:** : لقد تمنى الضالون العودة إلى الدنيا لعلهم يعملون صالحاً فيما تركوا من الحق، لكن غلب أمر الله عليهم أن لا يعودوا لها؛ لأنهم خلقوا لها وللنار فكانت عاقبتهم خسراً، «وإنَّ ما أصابهم من العذاب والنكال جعلهم يتمنون العودة إلى الدنيا ولو للحظات معدودة، ليعملوا عملاً صالحاً، ويصلحوا ما أفسدوه في الدنيا، لكن هيهات هذا الأمر يتحقق لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾[4]، فيقول الذين ظلموا طالبين الرجوع إلى الدنيا ليفلتوا من عذاب يوم عظيم، وهم في هذه الصورة يتضرعون إلى الله لكي يعيدهم مرة أخرى لكي يعملوا صالحاً، وليصلحوا أخطائهم، وليكفروا عنهم من سيئاتهم، وليجدوا طريقاً غير الطريق الذي كانوا يسيرون عليه، ولو تحقق لهم هذا الرجاء لأجابوا دعوة الله، ولكنهم كاذبون»[5]، «لكن جاءهم الرد القاسي الذي لا محيد عنه ولا مفر، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٤٢/٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية٤٤.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٢/ ١٠٨٩ - ١٠٩٠.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤٤.

(٥) التفسير القرآني للخطيب: ٢٠١/٧.

وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾[1]، «وهذا بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له أي سنعاملكم معاملة الناسي، فذوقوا عذاب الخلد بسبب كفركم وتكذيبكم[2]، «وبعد نزول العذاب عليهم يقول الكافر يا ليتني اتبعت الرسول وكنت من المتقين، ولكنه حين يرى العذاب، يتمنى ان يكون من المحسنين، لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3]، «حيث الحسرة على التفريط في الطاعة، والتعلل يفقد الهداية، ويتمنى الرجعة، فأجابهم تعالى بإن التعلل بفقد الهداية باطل، لأنَّ الهداية كانت حاضرة، والأعذار زائلة؛ لأنك استكبرت وكذبت بآيات الله وكنت من الكافرين، فوصفهم تعالى بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم ولو لم تكن هذه الأشياء افعالاً لهم لما صح هذا الكلام، لذلك اسودت وجوههم وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله، فالجهل ظلمة، والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم»[4]، وبعد ذلك بين تعالى أن أعمالهم قد كان لها الأثر السيء في نفوسهم إذ جعلتها مستذلة مستعبدة لغير الله فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها، فالأعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس، ولكن لا يظهر ذلك إلا في الآخرة التي تسعد النفوس فيها بتزكيتها، وتشقى بتدنيسها، وما هم بخارجين من النار هي خرافات الشرك وحب الانداد»[5].

«وهنا بدأت الحسرات على ما فات، وبدأت الندامة يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، يوم لا ينفع المال ولا البنون، فهنا بدأت حسرة المجرمين عند معاينة العذاب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[6]، «فحين عاينوا العذاب والبعث وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، فالآن أبصرنا وسمعنا قولك ونطيع أمرك، فأرجعنا إلى دار الدنيا نعمل صالحاً إنا موقنون فقد أيقنا أن وعدك حق ولقاءك حق، ولكن الله يعلم أنهم لو عادوا لكانوا كاذبين»[7].

ثم بعد ذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[8]، «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفع الندامة، فلو كانت

(١) سورة الجاثية: الآية ٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥٨.

(٤) تفسير الرازي: ٢٧/ ٤٦٧ - ٤٦٩.

(٥) تفسير المنار: ٦٥/٢.

(٦) سورة السجدة: الآية ١٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٦.

(٨) سورة الملك: الآية ١٠.

لنا عقول ننتفع بها، ولم يكن لنا فهم نعي ما جاءت به الرسل، ولا عقل لنا يرشدنا إلى اتباعهم، لذلك اعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير»[1].

لذلك فإن الكافر يوم القيامة يرى نفسه أنه لم يلبث إلا قليلاً فتأتيه الحسرة على ما فرط في جنب الله، لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾[2]، «وهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على لذاتها لم ينتفعوا بعمرهم طيلة حياتهم في الدنيا، فكان وجود ذلك العمر كالعدم، فلهذا السبب استغلوه في المعاصي، وهم لم يعرفوا قدر ذلك العمر إلا عندما شاهوا أهوال يوم القيامة، والإنسان إذا عظم خوفه نسي الأمور الظاهرة، لذلك فإن لذات الدنيا مع خساستها ما كانت خالصة، بل كانت مخلوطة بالهموم الكثيرة، وكانت تلك اللذات مقلوبة بالمولمات والآفات، وأن لذاتها ما حصلت إلا ببعض أوقات الحياة الدنيوية، أما أوقات الآخرة فإنها أبدية سرمدية لا تنقطع نسبة إلى جميع الدنيا، فهي مع قلتها وحقارتها في جنب ما حصل من العذاب الشديد، إشارة إلى أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من النهار، وأنهم لم يهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة؛ لأنهم اغتروا بالظاهر وتخفلوا عن الحقيقة، خاب سعيهم وفات أملهم فوقع في حرقة الروع وعذاب القلب[3].

«وهؤلاء قد خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ لأنهم ضيعوا أوقاتهم في اللهو واللعب، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾[4]، وهذا ما جلبوه لأنفسهم من العذاب في حين أنهم حسبوا أنفسهم سعوا لها في النعيم والنجاح، وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهذا حال كحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف، أما خسرانهم أهليهم؛ فذلك لأنهم أغروا أهليهم من أزواجهم وأولادهم بالكفر كما أوقفوا أنفسهم فيه فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة ولم ينفعوهم، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾[5]، فكان خسرانهم خسراناً عظيماً؛ لأنهم خسروا أحب ما عندهم وهم الذين انحسر فيهم جنس الخاسرين، وهو ذلك الهم الذي ملأ نفوسهم وصدورهم، فلم يبق متسع آخر لهم، فصارت شبيهاً بالغنى في أنه حصل عنده من ذلك المملوك شيء

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٨/ ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٤٥.

(٣) تفسير الرازي: ١٧/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٥.

(٥) سورة عبس: الآية ٣٧.

كثير، والخسران يشتمل على غير ذلك من الخزي وغضب الله واليأس من النجاة[1]، «وبعد هذا العناء والعذاب تعلو وجوههم غمامة سوداء تبين حالهم وهم في الظلمات غارقون فقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾[2]، فأما هذه الوجوه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة، ويغشاه سواد الذل والانقباض، وقد عرفت ما قدمت وأخرت، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء، أولئك هم الكفرة الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته»[3]، «والمراد هنا أنها معفرة بالغبار إهانة ومن أثر الكبوات، وترهقها ذلة تغلب عليها وتعلوها، وهذه وجوه الكفرة زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين، وأتبع وصف الكفرة بوصف الفجرة مع أن وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل فذكر وصفاهم الدالان على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل؛ أو لأنهم جمعوا بين الكفر والفجور»[4]، «فهؤلاء قد سولت لهم أنفسهم أعمالاً كانت سبباً لخفة موازينهم وهي خفة أعمالهم؛ لأنهم فقدوا الأعمال الصالحة، فكانت نفوسهم أوقفتهم في العذاب المقيم، فلا وزن لهم يوم القيامة وأنهم هم الخاسرون»[5].

المطلب الرابع: الصفات التي وصفهم بها تعالى في معرض الذم

لقد وصف تعالى أهل الضلالة بصفات كثيرة كانت كلها تدور حول عقاب وعذاب وخزي ونكال، ما كان هذا إلا جناية ما كسبته أنفسهم من الذنوب والمعاصي، وكان هذا سبباً لإعراضهم عن الهدى، فمن هذه الصفات نذكر منها:

١) «كونهم يفترون على الله الكذب: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾[6]، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم في تحصيلها، وقد أبطل الله تعالى هذه الطريقة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾[7]، وكذلك فإنهم ينكرون نبوة الرسول ﷺ ويقدحون في معجزاته، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ

(١) ينظر: تفسير الرازي: ٦٢/٣١، والتحرير والتنوير: ٣٦٠/٢٣ - ٣٦١.

(٢) سورة عبس: الآيات ٤٠ - ٤١.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٨٣٤/٦.

(٤) التحرير والتنوير: ١٣٨/٣٠.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢/٨.

(٦) سورة هود: الآية ١٨.

(٧) سورة هود: الآية ١٥.

فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾[1]، ومنها أنهم يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله، وهذا أيضاً أبطله الله تعالى في هذه الآية؛ لأنه إفتراء على الله بالكذب، وفيه دلالة على أن الافتراء على الله من أعظم أنواع الظلم، فحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه»[2].

٢) «أنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال: وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[3]، وذلك أنهم يعرضون فيختصمون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فحصل لهم العذاب المخزي والنكال والشقاء، وما وصفهم بذلك؛ لأنهم مختصون بذلك العرض، لأنَّ العرض عام في كل العباد»[4].

٣) كونهم ملعونين من عند الله: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[5]، وهم المشركون لا تنفعهم معذرتهم ولا يقبل منهم عذر ولا فدية ولهم اللعنة أي الإبعاد والطرد من رحمة الله، ولهم سوء الدار وهي النار، ولهم سوء العاقبة[6].

٤) أنهم يصدون عن سبيل الله مانعين من متابعة الحق: لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[7]، «وهذه صفة الظالمين الملعونين، الذين يمنعون الناس عن سبيل الموصلة إلى معرفته وعبادته، وهي دينه القيم وصراطه المستقيم، ويصفونها بالعوج والإلتواء للتنفير عنها، أو يريدون أن تكون عوجاء بموافقتها لأهوائهم من الشرك وإباحة اللم والفسق.

٥) كونهم كافرين بالآخرة: لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[8]، والحال أنهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون بالبعث والجزاء، إنما الدين عندهم رابطة دنيوية، وشعائر قومية، قد يتعصبون لها تعصبهم لقوميتهم، تقليداً لآبائهم[9].

---

(١) سورة هود: الآية ١٧.

(٢) تفسير الرازي: ٣٣١/١٧.

(٣) سورة هود: الآية ١٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣١/١٧.

(٥) سورة هود: الآية ١٨.

(٦) تفسير ابن كثير: ١٣٧/٧.

(٧) سورة هود: الآية ١٩.

(٨) سورة هود: الآية ١٩.

(٩) تفسير المنار: ٤٨/١٢.

٦) «كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾[١]، فهم لم يكونوا معجزي الله في الدنيا أن يعاقبهم بظلمهم وصدهم عن سبيله، وكفرهم بكتابه ورسوله ولقائه، فلا يمكنهم الهروب من عذاب الله تعالى، الذي قدره لهم»[٢].

٧) «ليس لهم أولياء يرفعون عنهم عذاب الله تعالى: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾[٣]؛ لأنَّهم أفسدوا في الأرض فما استطاع أحد من أوليائهم أن يتولى أمرهم من دون الله، ولا أنصار يمنعونهم من عقابه وينصرونهم، ولكن سبقت كلمته واقتضت حكمته أن يؤخرهم إلى هذا اليوم»[٤].

٨) «مضاعفة العذاب: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾[٥]، ولهذا فقد ثبت أن سبب مضاعفة العذاب في حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث والنشور، فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سبباً لمضاعفة العذاب، وذلك لضلالهم الشديد، سعوا في الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق»[٦].

٩) «عدم إستطاعتهم السمع ولا البصر: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾[٧]؛ لأنهم سعوا في إفساد كفرهم لأرواحهم، وظلمهم لأنفسهم، فحق عليهم القول بأنهم لا يستطيعون القاء اسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق وكلام الله عز وجل؛ وذلك لأن الباطل استحوذ عليهم وعلى أنفسهم، وزين الشيطان لهم الكفر والظلم على قلوبهم، ولشدة انهماكهم في الكفر ولوازمه من الباطل واتباع الهوى والشهوات، فصاروا يكرهون الحق والهدى كراهة شديدة، بحيث يثقل عليهم سماع الآيات السمعية، وما يثبته من الآيات البصرية؛ لأنهم فقدوا حاستي السمع والبصر فصاروا صماً وعمياناً بالفعل»[٨].

---

(١) سورة هود: الآية ٢٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٨/١٢.

(٣) سورة هود: الآية ٢٠.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٤٨/١٢.

(٥) سورة هود: الآية ٢٠.

(٦) تفسير الرازي: ٣٣٣/١٧.

(٧) سورة هود: الآية ٢٠.

(٨) تفسير المنار: ٤٨/١٢.

١٠) «أنهم شر ما يدب على الأرض: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾[١]، هم الذين كفروا فجمعوا مع أصل الكفر الإصرار عليه والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمانهم جملتهم ولا إيمان جمهورهم؛ لأنهم رؤساء حاسدين للرسول ﷺ، ومعاندين له جاحدين بآيات الله المؤيدة لرسالته على علم، على التقليد لا ينظرون في الدلائل والآيات، ولا الحجج البينات، حتى حملهم ذلك على نقض العهود، ونكث الإيمان بحيث لا حيلة في الحياة معهم أو في جوارهم حياة سلم ولا أمان؛ لأنهم من شرار البشر، بل هم أضل من الدواب»[٢].

١١) جلبوا الخسارة لأنفسهم: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾[٣]، «وهم الذين وصفوا بأنهم خسروا أنفسهم بافترائهم على الله، واشترائهم الضلالة بالهدى، فإنهم دسوها وما زكوها في الدنيا ففقدوها في الآخرة، وأي وجود لمن يصلى النار الكبرى من اتخاذ الشفعاء عند الله.

١٢) افترائهم جلب لهم الضلال: لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾[٤]؛ وذلك لأنهم باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا؛ لأنهم أعطوا الشريف، ورضوا بالخسيس، وهذا هو عين الخسران في الدنيا ثم في الآخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر»[٥].

١٣) «الخسران العظيم للآخرة: لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٢٢﴾[٦]؛ وذلك لأنه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة إلى العذاب العظيم، وكذلك فقد خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا، فإنه لا مكلف إلا وعين له منزل في الجنة لو أطاع، فإذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل، وهو مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أم في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه»[٧].

١٤) تزيين الشيطان لأعمالهم: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾[٨]، «وذلك لاستمرارهم على ضلالهم، وأن الله تعالى يعلم خبث نياتهم فحرمهم التوفيق ولم يصرف إليهم عناية تنقذهم من كيد الشيطان لحكمة علمها الله من حال ما جليت عليه نفوسهم، بحيث

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٥.

(٢) ينظر: تفسير المنار: ٤٢/١٠.

(٣) سورة هود: الآية ٢١.

(٤) سورة هود: الآية ٢١.

(٥) ينظر: تفسير الرازي: ٣٣٤/١٧، وينظر: تفسير المنار: ٤٩/١٢.

(٦) سورة هود: الآية ٢٢.

(٧) تفسير الرازي: ٥٤٢/٢٤.

(٨) سورة النمل: الآية ٤.

يلتبس على الناس سبب افتراق الناس في تلقي الهدى بين مبادر ومتقاعس ومصراً على الاستمرار في الضلال، لذلك جعلت نفوسهم وعقولهم قابلة للانفعال وقبول ما تراه من مساوئ الاعتقادات والأعمال التي اعتادوها، وهي أعمال الإشراك بالله الظاهرة والباطنة؛ لأنهم ألفوها فتصلبوا عليها بحيث صاروا غير قادرين على قبول الهدى لهذا الكتاب الذي جاءهم، وذلك لتزيين الشيطان لهم بوسوسته حيث وجدت في نفوسهم مرتفعاً خصباً ومتيناً لا يقحل، لذلك فإن الله مزين لهم بسبب تطور جبلة نفوسهم من أثر حقق سلامة الفطر عندهم، وأن هذا الاستمرار متفاوت الامتداد فمنه أشده وهو الذي يمتد بصاحبه إلى الموت، ومنه دون ذلك، وكل حسب تزين الكفر في نفوسهم تزييناً خالصاً أو مشوباً بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم خائنة الأعين»[1].

ما نراه أن هذا الوصف لأهل الضلالة قليل بحقهم؛ لأن هناك صفات أخرى بينت كرههم للحق ومعاندتهم من أجل إعلاء كلمة الباطل، ذلك ظنهم بربهم أرداهم في العذاب فأصبحوا من الخاسرين، ظانين أنهم بعملهم هذا خير، لكنه على عكس الحق فهو يريد أن يطمس نور الإسلام من القلوب، فأنَّى لهم ذلك بعد أن ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم غشاوة جعلتهم من أصحاب الشقاء والضلال، وهذا درس للأمة على أن تربي أبناءها على سماع الحق والابتعاد عن الظن السيء بالدين؛ لأنَّ ذلك يكفلهم من الخروج إلى بر الأمان وعدم المكوث بجانب أهل الضلال، هذا الأمر هو المخرج من ملة الشقاء ومن ملة الكفر، وهو سبب لإسعاد البشرية إذا آمنت بربها ودينها، والله أعلم.

المطلب الخامس: الضلال وأثره على الفرد والمجتمع

إنَّ الضلالة عن طريق الحق لها آثارٌ سلبيةٌ على الفرد والمجتمع؛ لأنَّ عدم الاستجابة لدواعي الحق هو الضلال بعينه، وهو الخلل الذي أصاب عقولهم وأفكارهم وهم يدافعون عنه بكل قوة وكأنهم على الحق، بل ومن شدة ضلالهم زعمهم أن الضلال هو التوحيد وأن الحق هو ما هم عليه من الباطل، لذلك نستدرك من آثاره على النحو الآتي:

١) التكبر في الأرض: «إن الله تعالى سيصرف عن آياته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق؛ لأنَّ من شأن الكِبْرِ أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال عن الحق والهدى لأجل اتباعه، فهم يكونون دائماً من المكذبين، بالآيات الدالة على الغافلين عنها، والتكبر صفة تكلف أو تكثر من الكبر الذي هو غمط الحق بعد الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص، والأصل أن يكون بغير حق، وقد يتصور أن يتكلف الإنسان إعلاء نفسه على غيره أو إكثاره من الاستعلاء

(١) التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٢١ - ٢٢٢.

عليه بحق كالترفع على المبطلين، وإهانة الجبارين، واحتقار المحاربين، فقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾[1]، فإنهم يتكبرون في حالة كونهم متلبسين بغير الحق؛ لأنهم منغمسون في الباطل الذي أوردهم مهاوي الشقاء، فهؤلاء لا قيمة لهم ولا قيمة للحق في نفسه عندهم، فهم لا يبطلونه ولا يبحثون عنه، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، فهو فيه الصلاح والاستقامة، وضده الغي، وهو الفساد الذي أوصلهم إلى الضلال فهي صفتهم التي مرنوا عليها واستمرعوا مرعى الغي والفساد، وأن ينفروا من الهدى والرشاد، فإن رأى أحدهم سبيله واضحة جلية لا يختارها لنفسه، فقد يجعلها سبيلاً له بإيثارها وتفضيلها على ما هو عليه، كل واحد يصل إلى هذه الدرجة من الغي؛ لأنَّ من الناس من يسلك طريق الغي على جهل، فإذا علم بما تنتهي إليه من الفساد والشقاء ورأى لنفسه مخرجاً منها، تركها واختار لنفسه سبيل الرشد عليها، فذلك هو الضلال بعينه، ولكنهم إن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً وهذه الحالة شر ما قبلها فإنَّ هذه إيجابية وتلك سلبية»[2]، فمن اجتمعت له هذه الأحوال أو الصفات، فهو الذي أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصه غشاوة، فلم يبق له سبيل من أسباب الحق والرشد يسلكها، بحيث لا يصرفه عن الفساد إلا جهل سبيله أو العجز عن سلوكها»[3].

٢) الطبع على القلوب: إن من أخطر العقوبات التي يصاب بها الإنسان هو الطبع على القلوب بحيث لا يسمع ولا يعقل ما يأتيه من الحق؛ «وذلك لأنهم لما عاندوا الحق الذي لم يأت بأيديهم، فقد طبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه، فإنه قد حيل بين عقولهم وإدراك ما يصيرون إليه بالإصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال في الدنيا، وشقاء وخلود في نكال الآخرة التي أنكروها في قلوبهم، فحجبتهم عن إدراك ما يتبع ذلك الحق من المعارف والحقائق الأخرى، فقد ختم على قلوبهم بالنسبة إلى ما حجبوا عنه، وأما الختم على سمعهم؛ فلأنهم صموا عن سماع الحق واستماع القول لفهمه، فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع إلا صوتاً لم ينفذ شيء من معناه إلى موضع الإدراك الحقيقي منه، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ إليه شيء ينتفع به، وأما الإبصار فقد كانت عليها غشاوات هؤلاء الجاحدين بآيات الله، ولما كان حديث الختم تمثيلاً لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية، مواهب العقل والسمع والإبصار، كان إسناده إلى الله تأكيد لمعنى الحرمان، وتقديراً لمصيبة الخسران؛ لأن ما ختم بيد الله لا تنفعه يد سواه، لذلك يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

(٢) تفسير المنار: ١٦٩/٩ - ١٧١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٧١/٩.

فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[1]، «لذلك فإنَّ الإعراض عن هدي الإسلام، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد جزاؤه الضنك في المعيشة في الحياة الدنيا، وشقاء ما بعده شقاء، مع فقد العزة والسلطة في الدنيا والعذاب العظيم في العقبى، وهذا كله له الأثر البالغ على الأفراد والمجتمعات في حال الطبع والختم على القلوب»[2]، فهذا يتحقق من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]، «لذلك فإنَّ من سنته تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، عندها تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلوب، والصمم والعمى والبكم»[4].

٣) إتخاذ اللهو واللعب ديناً لأنفسهم: لقد أثَّرَ على أهل الباطل أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، ومن عمل ذلك فهو اعتاد على ظلم نفسه، وظلم الآخرين، فما كان لهذا العمل إلا حب الحياة الدنيا التي أغرتهم وسكنت في قلوبهم، لذلك «فهؤلاء غرتهم الحياة الدنيا وهو مجاز؛ لأنَّ الحياة لا تغر في الحقيقة بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا؛ لأنَّ الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه، فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوباً عن طلب الدين غرقاً في طلب الدنيا والشقاء فيها، ولما وصف تعالى هؤلاء بهذه الصفات قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾[5]، فالنسيان هو التركُ، حيث تركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، فسنعاملهم معاملة من نسي نفسه فسقطوا في النار لإعراضهم عن آيات الله تعالى، والمراد بالنسيان أنه لا يجيبهم في دعاء ولا يرحمهم عند الشدة؛ لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون، وانهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، ثم غرتهم الحياة الدنيا، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم أعرضوا وضلوا عن آيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة، وقد يؤدي إلى الكفر والضلال، فيؤدي ذلك إلى خسارة الأفراد والمجتمعات إذا اتجه الناس إلى حب الدنيا»[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٤.

(٢) تفسير المنار: ١/ ١٢٢ - ١٢٤.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٤) ينظر: تفسير المنار: ٥٢٩/٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥١.

(٦) تفسير الرازي: ٢٥٣/١٤.

فمن كان يريد الحياة الدنيا من التمتع بلذاتها وشهواتها، والتي هي أدنى الحالتين خلق لهما وهي: الطعام، والشراب، والوقاع، وزينتها من اللباس، والأثاث، والرياش، والأولاد، والأموال، فهو لا يريد مع ذلك استعداداً للحياة الآخرة ولقاء الله تعالى، بالبر والإحسان، وتزكية النفس بباعث الإيمان، فهؤلاء نوفِ إليهم أعمالهم ونؤدها إليهم تامة بحسب سنتنا في الأسباب والمسببات ونظام الأقدار، ولا ينقصون شيئاً من نتائج كسبهم لأجل كفرهم، واجتناب الخيانة والزور والغش، وغير ذلك من الصبر والتعاون على البر والتقوى، ولأهلها العاقبة الحسنى فيها، فإنَّ العملَ للآخرة إنما هو تزكية للنفس بالإيمان والتقوى التي هي اجتناب المعاصي والرذائل، وأعمال البر والفضائل، فهؤلاء حبط وفسد ما صنعوا مما ظاهره البِرّ والإحسان والصدقة، ولكن هذا كله من باب الرياء والسمعة لأغراض نفسية من شهوات الدنيا، فبطل ما كانوا يعملونه في الدنيا فحصل لهم الشقاء في كلتا الدارين»[1].

٤) **صفة الكذب والنفاق:** لقد حذر القرآن الكريم من ظاهرة الكذب؛ لأنَّ الذين يفترون الكذب على الله ويكذبون بآياته أولئك لهم عذاب أليم بما صنعت السنتهم، وهذه الظاهرة إن انتشرت فإنها تكون سبباً في شقاء الناس مع صعوبة الثقة بين الناس وانعدامها؛ لأنَّ هذا الأمر يخلف في طياتها كثرة العداوات التي تعصف بين المسلمين على اختلاف اجناسهم، لهذا حذر الإسلام منها ونهى عنها وحذر منها أشد التحذير، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[2]، وقال الرازي: «هذه الآية فيها دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش؛ لأنَّ الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى، وإلا من كان كافراً وهذا تهديد في النهاية، وأن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر؛ لأن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة، وأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الإلهية ونبوة الأنبياء، وهذا الإنكار مشتمل على الكذب والافتراء»[3].

«وأن الذين يفترون الكذب على الله ورسوله هم شرار الخلق، من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس»[4].

وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾[5]، «والأفاك: كثير الإفك، وهو أسوأ من الكذب، والأثيم: وهو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، لذلك توعد سبحانه المكذبين لهذا القرآن بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد إيمانهم بأي حديث بعد إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ لأنه يسمع آيات

(١) تفسير المنار: ١٢/٤١ - ٤٢.

(٢) سورة النحل الآية ١٠٥.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٠/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/٥١٩.

(٥) سورة الجاثية: الآية ٧.

الله تتلى عليه لكنه يصر على الكفر والمعاصي في حال كونه متكبراً عن الإنقياد إلى الحق الذي تضمنته آيات القرآن، فله البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم»[1].

لذا فإن الكذب صفة ممقوتة عند الله وعند المؤمنين؛ لأنَّ من شأنه أن يفسد على الناس دينهم، حتى تنعدم الثقة بينهم، فهذا الأمر إذا تمكن في نفوس البشرية فإنه مرض خطير لا علاج له إلا بالصدق مع الله، فهؤلاء ما أصابهم من عذاب وشقاء إلا ما كان من حصيلة ألسنتهم بالكذب والنفاق، وإذا درسنا واقع الأمة الحالي نجد أنها تعيش على مبنى الكذب وهو صفة راسخة في هذه الأمة التي تعتمد عليه وكأنه سلعة تشترى لغرض تداولها في الأسواق، فما هكذا يبنى الدين، إنما يبنى على الصدق والإخلاص، والله أعلم.

وقد توعد سبحانه الكذاب بإنزال الشياطين عليه فقال: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾[2]، وقال إبن كثير: «تنزل الشياطين على كل كذاب في قوله، والفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذب والفسقة، والشياطين هم أيضاً كذبة وفسقة؛ لأنهم يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون عليها مئة كذبة، فيصدقهم الناس على ذلك الكذب»[3].

«والكذاب يكتسب صفة النفاق، ولهذا عده الله من المنافقين، حيث جعل الكذب من سمات المنافقين، فقال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤﴾[4]، وبين الشوكاني: «أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له، لذلك أعد الله لهم عذاباً شديداً بسبب الحلف على الباطل أنهم ساء ما كانوا يعملون من الأعمال القبيحة؛ لأنهم كانوا يحلفون في الدنيا، وهذا من شدة شقاوتهم، ومزيد الطبع على قلوبهم بسبب كذبهم، فهم الكاملون في الكذب، المتهالكون عليه»[5].

ثم بعد ذلك يصاب الكذاب بسواد الوجه من كثرة كذبه، فقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾[6]، وبين السعدي: «أن الله تعالى أخبر عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفونهم بذلك أهل الموقف، فالحق

(١) أضواء البيان للشنقيطي: ٧/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١ - ٢٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١٥٥/٦.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١٤.

(٥) فتح القدير: ٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٦) سورة الزمر: الآية ٦٠.

واضح كأنه الصبح، فكما سودوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم، فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، وأن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها، والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار أو بالإخبار بأنَّه قاله وشرعه»[1].

لذلك فالكذب يضل صاحبه عن هداية الله، وهو يجعل أموره في تخبط تام في الحياة الدنيا محسباً أنه يحسن صنعاً؛ لأنَّه يرى الحق باطلاً، والباطل حق، وهذا الذي قاله الله تعالى بحقه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[2]، فقال الرازي: «أن من أصر على الكذب والكفر بقي شقياً محروماً عن الهداية، حيث وصف الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، وأن وصف هذه الأشياء بالآلهة كذب محض»[3].

ثم بين سبحانه حال الذي يسرف في الكذب فقال تعالى فيه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨﴾[4]، والكذاب قد يخسر نفسه وأهله؛ لأنه ارتكب جرائم بحقهم وحق المجتمع الذي يسكن فيه ويعيش مع أفراده، فلا جزاء له إلا النار، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾[5]، وهكذا بين النبي ﷺ أن ((آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))[6]، كما حذر ﷺ من التهاون في شأن الكذب فقال: ((إيَّاكم والكَذِبَ، فإنَّ الكَذبَ يهدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وإنَّ الرجلَ ليَكذِبُ ويَتحرَّى الكَذِبَ حتى يكتَبَ عند الله كَذَّاباً، وعليكم بالصِّدْق، فإنَ الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإن الرَّجُلَ ليَصْدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتى يكتبَ عندَ الله صِدِّيقاً))[7]، ولهذا فإن التهاون في أمر الكذب قد يؤدي إلى مساوئ تكون وبالاً على هذه الأمة بعد أن نزغ الشيطان بين أفرادها وألقى أمنيته في صدورهم فأصبح همهم الشاغل هو

(١) تفسير السعدي: ٨٢٧/١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٤٢٢/٢٦.

(٤) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٠.

(٦) اخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق: ١٦/١ (٣٣).

(٧) اخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في الكذب، ٢٩٧/٤ برقم (٤٩٨٩) حكم الألباني: صحيح، وينظر: صحيح الأدب المفرد: ١٥٣/١.

الكذب الذي لا مفرَّ منه؛ لأنَّه أصبح تجارة يتداولها الناس من حيث الافتراء على الله تعالى، ومن حيث تعاملهم بين أنفسهم في بيع أو شراء أو كلام عابر؛ لأن الإنسان إذا استمر في الكذب ورأى أن الناس قد تصدقه فإنَّه يرى أن ذلك خير له.

ولم يحسب أن الله مد له ليزداد إثماً، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1]، وهذا الإثم حمل في طياته الخسارة الكبرى التي لا محيد منها بعد أن أهلك نفسه وأبعدها عن الحق الذي هو به النجاة، فأصبح التعامل اليوم بين الناس على أساس الكذب في كل مظاهر الحياة، حتى بدأ الناس يتخوفون من التعامل بعضهم مع بعض خشية أنه يكون كذاباً فلا يفي بوعده، وكذلك ما نراه اليوم من الحلف على السلع كذباً بأنها بالسعر الفلاني وهو يكذب، وكذلك مع الناس من إعطاء الدين للآخرين؛ لأنهم لا يوفون بوعدهم مع حصول الكذب في المواعيد، وهذا أبسط الأمور ولكن هناك أمور أخرى لا نعلمها من تعامل المجتمع بهذه الصفة التي قال عنها الماوردي: «والكذب جماع كل شَرٍّ، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج منه النميمة، والنميمة ينتج منها البغضاء، وهذه البغضاء تؤول إلى العداوة وهذه العداوة لا يكون معها أمن وراحة، فمن قل صدقه قل أصدقائه»[2].

وهذا كله يجمع من أمرٍ واحدٍ وهو أن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل وهو وليهم اليوم، ولقد أصاب هذه الأمة الشقاء بسبب ما كسبت أيديهم من التعامل بصفة يبغضها الله تعالى ورسوله، وهذه الصفة التي سرعان ما انتشرت بين صفوفها فأصبح الناس يتعاملون بها على أساس الصدق الباطل الذي نهى عنه الشرع، فعند ذلك قل الصدق في كل صنوف الحياة فخاطبهم تعالى في كتابه وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[3]، فالصِّدقُ أصبح اليوم ظاهرة معدومة في المجتمع؛ وذلك لأن الكذب طغى في ميادين الحياة من حيث الإفساد بين الناس والكذب على الله ورسوله، وإعطاء مواعيد غير صحيحة من أجل أن يكون بعيد عن أذية الآخرين وهذا ما نبذه الشرع ونهى عنه الإسلام، فإذا أرادت هذه الأمة أن تبعد نفسها عن هذا الشقاء والإبتلاء بأن تكون جديرة في تربية أفرادها على الصدق الذي يهدي إلى البر، خشية أن يخرج جيل مبني على أساس الكذب؛ لأنه رأى أهله سائرون على هذا الطريق الذي لا مفر له منه، كما أنه لم يُربَّ على الصدق؛ لأنه علم في نفسه أن هذا هو الصواب، لكن بالمقابل فإن هذا الأمر أصبح عسيراً؛ لأنه سرى في عروق الناس وهم لا يعلون كمن يدس السم في الطعام عند ذلك كان سبباً في موت العوائل، فهل نأسف لهذه الأمة التي جعلها الله تعالى خير

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(٢) أدب الدين والدنيا: ٢٦/١.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٩.

الأمم ما إن تربت على دين وخلق وصدق، فإن زاغت أزاغ الله قلوب أفرادها، وإن اهتدت فهو الخير الذي به النجاة إلى شواطئ الأمان، فوجب على هذه الأمة أن تخرج من هذا الإبتلاء والتدهور والفوضى التي عمت كل مفاصل الحياة وهو الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والله أعلم.

«لذلك فإن المعصية هي طريق الضلالة وهي سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه في عينه، فأصحاب المعاصي هانوا على الله فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾[1]، وإن هؤلاء وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم، لكنهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه، وإن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه فيصغر في قلبه، وذلك علامة من علامات الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله»[2].

المطلب السادس: أهم الاقوام التي أصابها الشقاء ومنها (شقاء قوم ثمود):

لقد أصيبت الأقوام السابقة بالضلال لأنها ظلت عن طريق ربها ودينها وأرادوا الحياة الدنيا التي أغرتهم بالطغيان، لذلك أخذهم الله بذنوبهم، وأبادهم عن بكرة أبيهم، لذلك قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾[3]

أولاً: المعنى العام: لقد بين تعالى حال الأقوام التي سبقت وشقت عن طريق الحق بطغيانها وكفرها وإشراكها بالله تعالى، فبعث الله تعالى الرسل إليهم منذرين لكنهم أصروا على الظلم فبين الإمام الطبري: «أن نبي الله صالح (عليه السلام) قال لثمود: يا قومِ اعبدوا الله وحده لا شريك له، فما لكم من إله غيره يجوز أن تعبدوه، وقد جاءتكم محجة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما أدعوا إليه، من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وتصديقي على أني له رسول، وبينتي على ما أقول وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي، وحجتي عليه، هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهضبة، دليلاً على صدق نبوتي وصدق مقالتي، فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحد إلا الله تعالى»[4]، وهي قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، وهذه البينة كانت سبباً لشقائهم وإهلاكهم، وهذا ما **أشار إليه الرازي:** «أن الله تعالى حكى عنه أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله كما ذكره من قبله من

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) الجواب الكافي لإبن القيم: ٥٨/١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٤) جامع البيان: ٥٢٥/١٢.

الأنبياء، وهي تدل على أن كل من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة؛ لأن التقليد وحده لو كان كافياً لكانت تلك البينة هاهنا لغواً ثم بين أن تلك البينة هي الناقة، فقال: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم أن طالبوه بالمعجزة، فكان خروج الناقة بكمالها من الصخرة فهو معجزة، لأجل ان لها شرب يوم ولجميع ثمود شرب يوم واستيفاء ناقة شرب أمة من الأمم عجيب، فأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً؛ لأنه خلقها بلا واسطة، ولا مالك لها غير الله تعالى، ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا فيها من النبات من إنباتكم، ولا تمسوها بسوء ولا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوا منها شيئاً من أنواع الأذى، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد فخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً، وأنزلكم في الأرض تتخذون القصور من سهولة الأرض، وتنحتون من الجبال بيوتاً فتجعلونها سقوفاً لكم، وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفين، فاذكروا نعم الله عليكم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، وهو المنع عن كل فساد»[1].

وقد أشار سبحانه إلى أنهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا بما جاء به نبيهم عند ذلك قالوا إنا بما جاء به صالح كافرون، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾[2]، «وهذه الآية تبين أن الفقر خير من الغنى؛ وذلك لأن الغنى يولد الإستكبار من كثرة المال والجاه، والإستضعاف إنما يحصل من قلتها، فبين تعالى أن الذي حملهم على التمرد، والإباء، والإنكار، والكفر، هو كثرة المال والجاه حملهم على ذلك، إما قلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتصديق، والإنقياد، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى، فعقروا الناقة، أي: ذبحوها، وأسند الأمر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وهذا يدل على شدة إستكبارهم عن إمتثال أمر ربهم وذلك الأمر هو الذي أوصله الله إليهم على لسان صالح (عليه السلام)، لذلك فكان أمر ربهم بتركها صار سبباً في إقدامهم على ذلك العتو، وهنا جاءت دعوتهم لصالح أن إئتنا بما تعدنا أن كنت من المرسلين؛ لأنهم كانوا مكذبين له في كل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد، فهنا جاء العذاب الشديد بعد أن تنصلوا عن الدعوة بالإنكار[3]، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾[4]، «وهي الزلزلة الشديدة، وهي لم يكن بينها وبين العقر زمن طويل، كان بينهما ثلاثة أيام، فقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبِۭ ٦٥﴾[5]، فأهلكتهم وأحاطت بهم إحاطة تامة، ولا شك أن الله نجى صالحاً (عليه

(١) مفاتيح الغيب: ١٤/ ٣٠٤ - ٣٠٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٦.

(٣) تفسير الرازي: ١٤/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٨.

(٥) سورة هود: الآية ٦٥.

السلام) والذين آمنوا معه، والرجفة: هنا هي إضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق، أو من أسباب أرضية كالزلازل، فعلمنا أن الذي أصاب ثمود هو الصاعقة أو صواعق متتالية رجفت أرضهم بهم وأهلكتهم صعقين، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾[1]، وهي بمعنى صاروا مكبين على صدورهم في الأرض مع قبض الساقين كما يجثوا الأرنب، ولما كان ذلك أشد سكوناً وانقطاعاً عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثة بالموت، وقد شبه بحالهم حين وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجاثم تفظيعاً لهيئة موتهم، والمعنى أنهم أصبحوا جثثاً هامدة ميتة على أبشع منظر لميت»[2].

المطلب السابع: أسباب شقاء قوم ثمود:

إن لشقاء قوم ثمود أسباباً كثيرةً جعلتهم في مَهَبِّ الريح ينزلقون وراء شهواتهم التي عصفت بهم وجعلتهم أئمة يهدون إلى النار؛ وذلك لأنه المرض الذي أصابهم مرض خطير من كل الجهات، فانعدمت الرؤيا عنهم، لذلك من أسباب شقائهم نذكر منها على النحو الآتي:

١) التكبر والطغيان: بعد أن أوقع الله تعالى بهم العذاب الشديد بسبب قتلهم الناقة وتكذيبهم لنبيهم صالح (عليه السلام)، لم يكتفوا بذلك بل كلهم جميعاً وافقوا على ذلك الأمر، فنزل بهم العذاب جميعاً إلا من آمن مع صالحاً وثبت على دينه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾[3]، فقد أشار إلى ذلك **سيد قطب** موضحاً هذه الصورة فقال: «فقد ذكر ان ثمود بسبب طغيانها وتكذيب نبيها، وقد يكون الطغيان وحده هو سبب التكذيب، وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها، وهو الذي عقر الناقة، وهو أشدها شقاءً وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم، هذا وقد حذرهم نبيهم قبل الإقدام على هذه الفعلة فقال لهم، احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوماً ولهم يوماً كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية، والتي كان لها شأن خاص لا يمكن الخوض في تفصيلاته؛ لأن الله لم يقل لنا عنه شيء، فكذبوا النذير وعقروا الناقة، والذي عقرها هو هذا الأشقى، ولكنهم جميعاً حملوا التبعة وعدواً أنهم عقروها؛ لأنهم لم يأخذوا على يده، بل كلهم استحسنوا فعلته القبيحة والتي من وراءها عذاب شديد»[4].

---

(١) سورة هود: الآية ٦٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٣) سورة الشمس: الآيات (١١-١٢).

(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩١٩.

وبين إبن عـاشور: «أن انبعاث أشقاهم لعقر الناقة هو جزئي من جزيئات طغواهم فهو أشد تعلقاً بالتكذيب المسبب عن الطغوى ففي تقديمه قضاء لحق هذا الاتصال، ولإفادة أن انبعاث أشقاهم لعقر الناقة كان عن إغراء منهم إياه، فهو أشدها شقوة، وعني بذلك رجل منهم وهو قدار بن سالف، وزيادته عليهم بالشقاوة بأنه هو الذي باشر بالجريمة وأن كان على ملأ منهم وإغراء، فعقروها بالتكذيب، وهي ناقة الله، تكذيب ثانٍ وهو تكذيبهم بما اقتضاه التحذير من الوعيد، والإنذار بالعذاب إن لم يحذروا الإعتداء على تلك الناقة، فدمدم عليهم ربهم أي: صاح عليهم ربهم صيحة غضب، وهو صوت الصاعقة والرجفة التي أهلكوا بها، حيث جعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم، لذلك أخبر تعالى أنه الغالب الذي لا يقدر مغلوبه على أخذ الثأر منه؛ لأنه تعالى متمكن من عقاب المشركين، وإن تأخر العذاب عنهم إمهال لهم وليس عن عجز فهو القادر على كل شيء، وهذه كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم ولم يبقَ منهم أحد»[1].

٢) إصرارهم على العناد: لقد أصر قوم ثمود على المكابرة والعناد بأخذ السيئة وترك الحسنة، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾[2]، وذلك عندما أنكر عليهم أخذهم بطرف التكذيب إذ أعرضوا عن التدبر في دلائل صدقه، ولهذا جمع في كلامه بين السيئة والحسنة، والمراد بالسيئة هو الحالة السيئة التي كانوا عليها والتي يرتقبون حلولها، وهي ما سألوا لكي يعجل لهم العذاب، وإنكار تأخير العذاب إمارة فهم على كذب الوعيد به وأن الأولى بهم أن يجعلوا إمتداد السلامة إمارة على إمهال الله إياهم فيتقوا حلول العذاب، أي: لم تبقون على الكذب منتظرين حلول العذاب، كان الأجدر بكم التصديق بما جاء به النبي، ولهذا فإنَّ هذا تنبيه لهم على خطئهم في ظنهم أنه لو كان صالح صادقاً فيما توعدهم لعجل لهم العذاب، والعذاب أمر عظيم لا يجوز الدخول تحت إحتماله، فكأنهم بادروا إلى أخذ السيئة وهو العذاب قبل أخذ الحسنة، وذلك لعلة استعجالهم، كناية عن انتفاء ما حقه أن يكون سبباً لإستعجال العذاب[3].

٣) الظلم: لقوله تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾[4]، وهذا يدل على أن بيوتهم أصبحت خاوية باق بعضها في الجبال لا ساكن لها، فكان سبب خواؤها بسبب ظلمهم، والظلم هنا يقع على الشرك وتكذيب رسولهم، فذلك ظلم في جانب الله؛ لأنه إعتداء على حق الوحدانية، وظلم للرسول بتكذيبه وهو الصادق، ولما خص تعالى عملهم بوصفه بالظلم من بين عدة

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٧٣ - ٣٧٥.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) سورة النمل: الآية ٥٢.

أحوال يشتمل عليها كفرهم، كالفساد كان ذلك إشارة إلى أنَّ للظلم أثراً في خراب البيوت، فالشرك ينشأ حقائق أخرى مثل الظلم، أي الإعتداء على الناس بأخذ حقوقهم فإنَّه من أسبابه، وكذلك الفسق من آثاره، وهذا بدوره يؤدي إلى التكذيب فإنَّه من آثاره أيضاً، لقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾[1]، ومثله الكبر والإسراف فإنهما من آثاره، لذلك فالشرك جامع لعدة فضائع، وللتنبيه على انتسابه لهذه الأجناس، وللتحذير منه ومن فساد هذه الحقائق من حيث هي فعبر عنها بالظلم وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم، ناهيك أن الشرك من أنواعه، فالمسرف الكذاب متأمل في الشرك وإلا فإن الله هدى كثير من المسرفين والكذابين بالتوبة، وفيه تعريض بأن المشركين لم يتعظوا بها فهم قوم لا يعلمون[2].

٤) **القتل:** لقد تآمر قوم ثمود على قتل نبي الله (عليه السلام) لكي يبعدوه عن دعوته إليهم، وبعد أن قتلوا الناقة جاءت حيلتهم الثانية وهي المكر، لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3]، «وقد بدأت هذه المرحلة بهؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد، فلم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وصحبته، وبيتوا فيما بينهم أمراً، ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا الشر المنكر الذي يبيتونه، وهو قتل صالح وأهله بياتاً، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله، وهم يحاولون قتله ونكران هذه الجريمة بقولهم إننا لم نشهد قتله ولم نحضره، ولكنهم قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي: لم يروه وأهله، ومن العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين، ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والاستواءات، وخاصة إذا كانت لا تهتدي بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم، فقد مكروا، ولكن الله كان لهم بالمرصاد حيث يراهم ولا يرونه، فقد أخطأ الجبارون المتكبرون بما يملكون من قوة ومن حيلة، فقد مكروا ولكن جاء مكر الله فإذا هو التدمير والهلاك، فأصبحت الدور خاوية والبيوت خالية؛ لأنها لم تسكن من بعدهم لما حل بها من الدمار والهلاك، فأنجى الله المؤمنين وأهلك الظالمين[4].

فتلك رسالة للأمة تدل على أن الظلم لا يدوم ومهما بلغ الظالمون من العتو والطغيان فإن عاقبتهم الهلاك، فهذه رسالة واضحة للمكذبين بالدين أن الله يعلم ما تكن صدورهم من الحقد والحسد للإسلام والمسلمين، فسيمكر بكم الله قبل أن تمكروا بأهل الإيمان، فيرفع الله شأنهم،

(١) سورة المزمل: الآية ١١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) سورة النمل: الآية ٤٩.

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٦٤٥ - ٢٦٤٦.

ويطأطأ رؤوسكم، والله أعلم.

٥) إكثار الفساد: فقد تمادى قوم ثمود في طغيانهم فأكثروا في الأرض المعاصي والفساد من أجل أن يصدوا المؤمنين عن الإيمان وأن يجبروهم على عمل المعاصي مثل ما هم عملوا، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾[1]، أي: «عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين، فأكثروا في الأرض الفساد وهو ضد الصلاح، والصلاح هو عمل البر، أما الفساد فهو يتناول جميع أقسام الإثم فمن عمل بغير أمر الله وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد في الأرض»[2].

وقال سيد قطب: «فهذا الطغيان ليس وراءه إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواءً، كما أنه يفسد العلاقات في كل جوانب الحياة؛ لأنه يحول الحياة عن خطها السليم النظيف، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بأي حال من الأحوال، فهو يجعل الطاغية أسير لهواه وشهواته، وهو ليس له ميزان ثابت في الحياة حيث يتقلب كما تتقلب الريح، لا يقف عند حد ظاهر، وهو أول من يفسد ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف وهو ما قاله فرعون، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[3]، عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح»[4]، «وهو فساد وأي فساد يجعل من الناس أرقاء أذلاء لمخلوق مثله، وهو يحمل السخط الدفين والحقد الأليم، فهو بذلك عطل مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الإبتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستذل وتتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميداناً للإنحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والإرتفاع، وهو فساد أي فساد؛ لأنه يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، وأنها لخطر على الطغاة والطغيان، فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة، فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان علاجهم هو تطهير الأرض من الفساد، فلما كثر الفساد عند ذلك صب عليهم ربك سوط عذاب، فهو يجتمع فيه الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا في الأرض الفساد»[5].

وبهذا فقد تبين أن الأمم إذا طغت فقد تخلت عن قيمتها وأخلاقها، وجارت بالسوء أعمالها، فقد فرقت أفرادها وشاع بين الأمم فسادها، فأدى إلى خراب عمرانها، وطمس حقيقتها، وترك دينها الذي هو عصمة

(١) سورة الفجر: الآيات (١١ - ١٢).

(٢) تفسير الرازي: ١٥٤/٣١.

(٣) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٠٣ - ٣٩٠٤.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٦/ ٣٩٠٣ - ٣٩٠٤.

أمرها، فقد بين **إبن عاشور** حال الأمم اليوم فقال: «إن كل أمة من هؤلاء طغت في بلادها فأوقعت الطغيان في سائر البلاد، فأكثرت الفساد فأدى ذلك إلى فساد الجميع بسن سنن السوء؛ وذلك لأن الطغيان يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة سيكون قدوة سوء لأمثاله وملأه، فكل واحد من هؤلاء يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم؛ لأنه تختل الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة، ومن جهة أخرى يثير الضغائن والأحقاد بين أطياف المجامع؛ لأن المطغي عليه من الرعية قد يضمرون السوء للطاغين فيحاولون النيل منهم والخلاص منهم»[1]، فبذلك تنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور فيتربصون بهم الدوائر فيكونون لهم أعداء غير مخلصي الضمائر، عند ذلك يكون رجال الدولة متوجسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال ويحذرونهم فعند ذلك تتوزع قوة الأمة على أفرادها عوض أن تتحد على أعدائها فيكون لها شأن مع هذه الأمم، ولكن الأمر عكس ذلك فيصبح للأمة أعداء من الخارج وأعداء من الداخل وذلك يفضي إلى فساد عظيم، وانحلال فضيع، يودي بها إلى المهالك التي تشقى بها على مر العصور والأزمان، فلا جرم أن الطغيان سبب لكثرة الفساد في الأرض، وهو سبب لغضب الله عليهم، والله لا يحب الفساد، فعند ذلك صب عليهم ربك سوط عذاب، فكان عذاباً مفاجئاً قاضياً[2].

وما نراه أن حال الأمم قد خرج عن دائرة الحق، فسارت في طريق الباطل، فانهدم ركنها، ولم يعز شأنها، فضعفت وتهالكت؛ لأنها طغت فطغى أفرادها من حيث زخارف الحياة الدنيا فكان لها هذا إبتلاء لكنها لم تركن إلى دينها فأصيبت بالشقاء الذي حل بها، فجعلها أمة لا يهابها أحد فجعل من الأعداء مسرحاً يعيثوا في أراضيها الفساد، وفي عوائلها التفسخ من خلال ما يبثه الأعداء من سموم جعلت العباد صادين عن ذكر الله وعن الصلاة، فمتى ينتهون، ومتى تعود إلى رشدها، حتى تفيء إلى أمر الله، فذلك علم عند الله تعالى، والله أعلم.

٦) **الكفر والتكذيب:** لم يكتف قوم ثمود بالقتل والطغيان، بل تعدوا كل الحدود التي أدت بهم إلى وادي العصيان والجبروت الذي أهلك الأمم، فكان لقوم ثمود نصيب من الكفر والتكذيب، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾[3]، «وهذا ذكر لأهوال يوم القيامة وما أعده الله تعالى لأهل الشقاوة، الذين كذبوا الرسل، كعاد وثمود وفرعون، ليزدجر بهم غيرهم ومن جاء من خلفهم، لكنهم كذبوا بالقارعة وهو يوم القيامة يوم الحسرة والندامة؛ لأنها تقرع القلوب بصدمتها، وتقرع الناس بالأقراع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار، يدل ذلك على معنى القرع في الحاقة زيادة على وصف شدتها، وهؤلاء الذين كذبوا بها فقد

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٢١ - ٣٢٢.

(٣) سورة الحاقة: الآيات (٤ - ٥).

حل بهم العذاب الشديد، وهو تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم»[1]، «وهذا تذكير بما حل لهم من جزاء جراء تكذيبهم بالبعث والجزاء وتعريضاً للمشركين من أهل مكة أن يحل عليهم مثل ما حل بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث، لذلك تبين أن ثمود وعاد من أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة»[2].

٧) **إستحباب العمى وعدم الهداية:** لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾[3]، «أي: كان العمى محبوباً لهم؛ لأنهم اختاروا الضلال بكسبهم، فضلوا وآثروا، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، وكان العقاب مناسباً للجرم؛ لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فمن استحبه فشأنه أن يحب العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة؛ لأنها تعمي أبصارهم حين تهلكهم، والعذاب هو: الإهلاك بالصعق، والهوان هو الذل، لكونه فيه إهلاكاً فيه مذلة إذ هلكوا عن بكرة أبيهم وتركوا صرعى على وجه الأرض، بسبب إختيارهم الضلال وإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته، وأن لهم في الآخرة عذاباً شديداً لتمثلهم بالكفر والتكذيب»[4].

ولهذا فإن هذه الأمة إن أصيبت بالعمى فذلك هو الخسران المبين، الذي يدل على أن الأمة قد تنصلت عن كل قيمها ومبادئها تجاه دينها، وما حل بها هو من جراء الضلال الذي أصابها فأبعدها عن طريق الحق الذي رسم لها، والله أعلم.

٨) **التقليد لآبائهم:** لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[5]، «بين تعالى أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، لكنهم ذهبوا إلى ذلك بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وهذا يدل على أن القول بالتقليد باطل، وأن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل المشاق النظر والإستدلال لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[6]، «والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أي: بطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا

(١) البحر المحيط: ٢٥٤/١٠.

(٢) التحرير التنوير: ٢٩/ ١١٥.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٥) سورة هود: الآية ٦٢.

(٦) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

علمت أن رأس جميع الآفات هو حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله تعالى والدار الآخرة»[1].

«والمقصود من ذلك هو أن أهل الضلال من السابقين واللاحقين، قد استووا فيه كما استووا في مثاره وهو النظر القاصر المخطئ، بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان، وأنهم مثل قريش في الإزدهاء بالنعمة التي هم فيها، أي: في بطر نعمة الله عليهم، فالتشبيه يقتضي أنهم مثل الأمم السابقة في سبب الإزدهاء وهو ما هم فيه من نعمة حتى نسوا إحتياجهم إلى الله تعالى، فقلد آبائهم في الكفر والمعاصي»[2]، «فكان نتيجة ذلك أن أهلكهم الله تعالى، أن أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فقد أطبق عليهم الأرض، وسواها من فوقهم جميعاً دون أن يلتفت منهم أحد، وصاروا كلهم تحت ترابها، بسبب هذا التكذيب، وتجاوزوا كل الحدود التي نهاهم عنها تعالى، وأن عاقبة ما فعله هؤلاء الطغاة الأشقياء هو الخسران المبين، وأنه تعالى لا يخاف عقباها»[3].

وما نراه أن هذه الآيات تحمل عبر ودروس لكل إنسان عرف قدر نفسه فمنعها عن حب الدنيا والإبتعاد عن الظلم والضلال الذي يشقى به الإنسان، فيبقى تحت لائمة النفس لا أحد يجيره، ولا أحد يشفع له؛ لأنه اختار الطرق القصيرة التي لم تكن تؤدي إلى الخير فقد سار على عكس ما يسير عليه الناس اليوم، فكانت نتيجة الذل والخسران بما كسبت يداه من ظلم الناس، والإبتعاد عن دين الله الذي به العزة والنور، فاختار لنفسه أن يكون في دائرة المضلين الذين أفسدوا في الأرض فجعلوا أعزة أهلها أذلة، ولهذا جاء القرآن يقص علينا أحسن القصص ومنها ما أصاب الأقوام السابقة من الهلاك والبوار الذي حل بهم فأصابهم شقاء الدارين، شقاء في الدنيا؛ لأنهم عملوا بأعمال الظالمين فاستحقوا العذاب، وشقاء في الآخرة وهو النار التي تصلي أجسادهم، وما يحصل اليوم بين الناس ما هو إلا شقاء نتيجة الأعمال غير الصالحة ومنها أن الناس يظلم بعضهم بعضاً، وبعضهم يأكل مال بعض، وبعضهم يعتدي على بعض، حتى أصبحوا في الحياة كأنهم جراد منتشر، لا أحد يطيق أحد، ولا أحد يساعد أحد، أغلبهم همهم الحياة الدنيا والصعود فيها بأي طرق كانت حتى ولو كانت طرق متعرجة المهم فيها كسب الحرام من أجل الصعود، ومنهم من يؤذي الناس من أجل البقاء والصعود على أكتافهم، ومنهم من يمتص دمهم عن طريق علاجهم، فهؤلاء وقعوا في مهاوي الضلال الذي هو الشقاء، فكان هذا هو الإبتلاء الذي لم ينتبه له الناس فوقعوا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وهم ظانين أنهم يعيشون مدى الحياة، وما هي إلا ساعات فإنهم مغادرون إلى دار فيها المستقر والنشور، والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي: ٤١٦/١٥.

المطلب الثامن: الضوابط المستنبطة من القرآن لتقديم الحلول من أجل عدم الوقوع في الشقاء:

إن الشقاء داء يصيب الإنسان ويعرضه إلى الحرمان والطرد والإبعاد، فهو في هذه الحالة يعيش محروماً من كل خير، من خلال إبتعاد الناس عنه؛ لأنه يسارع في ارتكاب الذنوب والمعاصي، والتي من خلالها يحرم الهداية والتوفيق في الدنيا والآخرة، فلا تجده إلا وله عيشة صعبة كلها ضنك، فلا تكاد تجد ذلك الشخص يرعوي لنصيحة أو هداية، فإنه في ذلك اختار جهنم وبئس المصير، لذلك سنبين الطرق في علاج الشقاء وهي على النحو الآتي:

١) الإيمان الصادق بالله تعالى: إنَّ الإيمان بالله تعالى يجعل قلب المؤمن سليماً من الآفات والأمراض التي قد تعيق إصابته بالصد عن ذكر الله، فالإيمان الصحيح يبعث في نفس المؤمن الأمن والأمان والاطمئنان، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[1]، فهم الذين أخلصوا عبادتهم لله تعالى ولم يجعلوا معه شريكاً في العبودية؛ لأن الشرك هو الظلم الذي لا حياة له، فالأمن لا يكون إلا بالإيمان الصادق الذي يبعث عن تحرر النفس من مهالك الشقاء.

٢) الثبات على ذكر الله: لقد خص عز وجل عباده بالإطمئنان في حال إذا داوموا على ذكره، فإن في ذكر الله يطمئن القلب فتنزل السكينة عليه فيصبح مملوءاً بالطمأنينة والوقار، بعيداً عن مزالق الهوى والردى، بعيداً عن مهاوي الشيطان، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾[2]، «واطمئنان القلوب سكونها بعد الاضطراب من خشيته، وذكر الله رحمته ومغفرته، فتطمئن بالقرآن؛ لأنَّه أعظم المعجزات التي تسكن بها القلوب وتثبت، فبالذكر تحصل الطمأنينة ترغيباً في الإيمان، وفي ذلك الأمر إبعاداً لمرض الشقاء»[3].

٣) الإستقامة على طريق الحق المبين: إن العبد إذا استقام على دينه فقد حصلت له السعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن فيها صلاح أمره كله مستمداً ذلك العون من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾[4]، «أي طلبوا طاعة الله، واستقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته، أولئك هم الآمنون عند الموت، ومن عذاب القبر، وعند البعث، فلا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل ومال وولد، لا تخافوا ولا تحزنوا على أولادكم، فإن الله خليفتكم عليهم، فأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»[5].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٣) البحر المحيط: ٣٨٥/٦.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٠.

(٥) فتح القدير للشوكاني: ٥٩٠/٤.

٤) التقوى ملاك الهدى: إنَّ تقوى الله تعالى هي الأساس في العبادة؛ لأنها ملاك العبد ونوره فيها يبتعد الإنسان ويحصن نفسه من الذنوب والمعاصي، فهي سبب تكفير الذنوب والسيئات، كما أنها سبب في كثرة الرزق، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾[1]، «فقد خص تعالى المؤمنين بالهداية والمعرفة، من حيث إنَّه يشرح صدورهم ويثبت قلوبهم، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾[2]، كما أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، كما يزيل المكر والخداع عن صدورهم، والسبب في حصول هذه الأمور هو أن القلب صار مشرقاً بطاعة الله تعالى فزالت عنه تلك الظلمات؛ لأن معرفة الله نور، فإذا ظهر النور زالت الظلمة، فجاء للمؤمنين العلو والفتح والنصر والظفر، ولهم الثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الملائكة وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان، وهو أن تقوى الله زالت عنهم كل هذه الأمور مع أنها السبب في الإبتعاد عن الشقاء ومضرته»[3].

٥) القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين: إن الله تعالى أنزل القرآن رحمة للعالمين، ورحمته تعالى وسعت مل شيء في هذا الكون، وأنه تعالى سيجعلها للذين آمنوا واتقوا، أي اتقوا المعاصي والذنوب، فمن التزم القرآن كان له حصناً من الشيطان، ولم يقع في مهاوي الهلاك، فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾[4]، فمن زاغ عنه هلك واتبع سبيل الردى، عند ذلك حكم على نفسه بالشقاء، فالقرآن دواء لكل داء، وهو النور المخرج من الظلمات إلى النور، «وهو حياة القلوب وشفاء لما في الصدور، فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا، والتوفيض، والشكر، والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه»[5].

٦) الإخلاص في الدين والعقيدة: إنَّ الإخلاص في العبادة هي الأساس وهي عنوان الدين، والثبات على العقيدة، لغرض توحيد رب العزة والجلالة، كما أنَّ الإخلاص كشجرة ثابتة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي أساس الأخلاق، وبه يثبت المجتمع على الفضيلة والتسامح، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٢.

(٣) تفسير الرازي: ٤٧٦/١٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٥) مفتاح دار السعادة لإبن القيم: ١٨٧/١.

لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[1]، «بالإيمان بالله تعالى، والتبرأ من الشرك، ثم إقامة الصلاة، والتي هي مظهر الولاء لله تعالى، ثم إيتاء الزكاة، والتي هي أثر من آثار الإيمان بالله، والذي هو من شأنه أن يبعث على التواد والتراحم بين المسلمين، فهذا هو الإخلاص الذي يبعد الإنسان عن طريق الهلاك والعذاب»[2].

٧) **الخوف والخشية من الله تعالى:** لقد حث القرآن على التحلي بالخشية التي موقعها القلب، وهي نابعة من قوة الإيمان بالله تعالى، فالخشية هي الأساس الذي يبعد الإنسان عن الحرام، فلا يميل قلبه إلى المكر والخداع، ما دام يخشى الله تعالى ويتبع أوامره ونواهيه، فالمجتمع الذي يقوم أفراده على الخوف والخشية، فهو مجتمع عادل ينبني على الأصول الثابتة التي أرادها الإسلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾[3]، «ولهذا قدم تعالى لأهل الخشية المغفرة تطميناً لقلوبهم؛ لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر ومن اللمم ونحوه، ثم أعقبه بالبشارة بالأجر العظيم، فهم في ذلك لم يقعوا في مهاوي الهلاك»[4].

٨) **الإسراع في الأعمال الصالحة بفعل الخيرات:** أن الإنسان يعيش على مبدأ ثابت في الحياة الدنيا وهو عمل الصالحات التي تجعله واقياً من عمل المنكرات التي ترديه قتيلاً تحت شقاء دائم، لذلك وجب على الإنسان العيش وفق معايير الإسلام، فيقبل ويسارع في الخيرات، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[5]، فهذه المسارعة للخيرات تجعل من الإنسان فرداً وقوراً له صفات يتحلى بها من الصدق والأمانة والرحمة والعدل والإحسان إلى الناس وغيرها من الأخلاق التي يبنى عليها المجتمع الفاضل، وهي الأساس الذي ينجيه من شر المهالك.

٩) **التفكر في نعم الله مع الشكر له تعالى:** إنَّ هذه النعم التي خلقها الله تعالى للإنسان أراد منه أن يتفكر كيف خلقت من أجله، فإن هو شكرها زادت عليه وكانت له واقياً من الشقاء، وأما إن كفر بها فزادته رجساً إلى رجسه ومات وهو تحت غطاء الهلاك، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣﴾[6]، فهذه النعم كلها من الله فوجب شكرها مع شكر المنعم بها عليهم.

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

(٢) التفسير القرآني للخطيب: ١٦٤٤/١٦.

(٣) سورة الملك: الآية ١٢.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٩.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٦) سورة النحل: الآية ٥٣.

١٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له أهدافاً عظيمة في حياة هذه الأمة فهي تبني المجتمع لغرض وقايته من المحرمات والرذائل، وكل شيء من شأنه أن يفرق هذا المجتمع، كما أنها تربي الأفراد على الإبتعاد عن المعاصي والإسراف، فهي تنمي فيهم روح الخير والبركة، فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1]، لذلك فهذا الأمر إن طبق في المجتمع فقد طهر المجتمع من الأخلاق الرذيلة التي تحط من قدره، وساد فيه الإيمان والأخلاق الفاضلة التي ترفع من شأن هذا الدين وأهله.

١١) الإبتعاد عن الفواحش وعدم اشاعتها لأنها سبب الشقاء والهلاك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[2]، لقد أكدت هذه الآية بشكل واضح على أن هذا الأمر هو تصرف يهدم قيم الإنسانية كلها، حيث يحمل في طياته آلاماً وأضراراً تجعل المجتمع في دوامة كبرى؛ لأنه إذا شاعت الفواحش بين أفراده ساءت كل قيمة، مع تفرق عوائله وتشتتها، وهذا العمل هو ضد مبدأ الإسلام، **فقال إبن عاشور:** «إن شيوع أخبار الفواحش بين المسلمين مفسدة أخلاقية وإن كان بالصدق أو الكذب، فإن مما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم وقوعها وكراهيتهم لها سوء سمعتها، وهذا مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها به الإقدام عليها رويداً رويداً حتى تنسى وتنمحي صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع الفواحش عند ذلك تذكرتها الخواطر وخف وقعها على الأسماع فكان ذلك عاملاً في التهاون بوقوعها وخفة وقعها على الأسماع، فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على إقترافها فتصبح متداولة بين الناس، كما فيه من إلحاق الأذى والضر بالناس ضراً متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار بالصدق والكذب، والله يعلم ما في ذلك من المفاسد فيعضكم لاجتنابها وأنتم لا تعلمون ما يترتب على ذلك من ضر للناس جميعاً، لذلك وجب الاحتراز منها خشية الوقوع في مهاوي الشقاء»[3]. ومن هذه الفواحش هي الابتعاد عن الزنا والربا والسرقة، وأكل الحرام؛ لأنَّ هذه كلها من أسباب الشقاء.

١٢) الإبتعاد عن خطوات الشيطان: وهذا هو الأمر المهم في التخلص من مهاوي الشقاء؛ لأنه هو العدو الأعظم للإنسان والإنسانية جميعها فهو الذي أوقع البشر في مهاوي الرذيلة والتعاسة، فقال عنه تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٨٥/١٨.

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[1]؛ «وذلك لأن محبة إشاعة السوء والفواحش كلها من وساوس الشيطان الذي جعل العباد في ظلالة تحت غطاء تتبع خطواته، لذلك شبه فاعلها في كونه متلبساً بوسوسة الشيطان بهيئة الشيطان يمشي والعامل يتبع خطى ذلك الشيطان، فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر التي تقرب صاحبها من الهلاك، فلولا فضل الله على الناس لأغواهم جميعاً، لذلك وجب الاحتراز منه»[2].

١٣) ولهذا فإن هذا البلاء قد حذرت منه السنة المطهرة، فقد ذُكر أن النبي ﷺ: ((كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ))[3]، لذا وجب التعوذ من هذا الداء الخطير الذي يوقع العباد في دوامة الضلال.

١٤) وقال ﷺ **في حديث آخر وهو يبين حال أهل السعادة وأهل الشقاوة، فقال:** «اعْمَلْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ يَعْمَلُ لِلسَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ))[4]

١٥) الصدق في كل شيء: إن الصدق عنوان الحياة وسعادته؛ لأن الصدق إذا ساد، ساد الإطمئنان، وزادت الثقة بين الناس، لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[5]، «فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت، وذلك يمنع من إطباق الكل على الباطل، ومتى امتنع اطباق الكل على الباطل، وجب على كل شيء أن يكونوا صادقين محقين، ومن فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات»[6]، وقال ﷺ: ((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))[7]، لذلك وجب الصدق لغرض النجاة من أمر الشقاء الذي به هلاك الأمم، وبه ذهاب الخيرات، لكن الصدق ملاك الهوى، وملاك الخيرات والسعادات، والله أعلم.

---

(١) سورة النور: الآية ٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) الأدب المفرد مخرجاً: ٢٣٣/١، (٦٦٩)، والسنن الكبرى للنسائي: ٢٢٤/٧، (٧٨٧٥)، وصحيح ابن حبان مخرجاً: ٢٩٤/٣، (١٠١٦)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٣١٦/٧، وشرح السنة للبغوي: ٥/ ١٦٠، (١٣٦٠)، حكم الالباني: حديث صحيح، ينظر: صحيح الجامع الصغير للألباني: ٨٨٢/٢، (٤٩٠١).

(٤) ينظر: سنن الترمذي: ٤٤٥/٤، (٢١٣٥)، والسنة لإبن أبي عاصم: ٧١/١، (١٦٣)، والإبانة الكبرى لإبن بطة: ٣٠٤/٣، (١٣٢٥)، ومسند البزار: ٢٣٢/١، (١٢١)، حكم الألباني: حديث صحيح.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١٩.

(٦) تفسير الرازي: ١٦/ ١٦٦ - ١٦٧.

(٧) ينظر: السنة للمروزي: ٢٨/١، (٧٦)، ومسند ابي يعلي الموصلي: ٧١/٩، (٥١٣٨)، والمعجم الأوسط: ٣٢/٨، (٧٨٧١)، حكم الالباني: اسناده صحيح على شرطهما، ينظر: مشكاة المصابيح للألباني: ١٣٥٧/٣، (٤٨٢٤).

الخاتمة

الحمد لله العلي القدير، بسط الأرض ورفع السماء ثم استوى على العرش العظيم، يدبر الأمر من السماء إلى لأرض ليخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم، أسأله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير للإسلام والمسلمين، فما توصلت إليه من نتائج خدمة لعباده المتقين، وهذه النتائج على النحو الآتي:

١) إن للشقاء أسباب كثيرة، وقد تؤدي إلى وقوع الإنسان بإحدى هذه الأسباب التي تسهل على الشيطان مهمته في إهلاكه.

٢) إن سبب شقاء الناس اليوم هو الشيطان؛ لأن له أساليب عدة لكي تجعل الإنسان يعيش في شقاء فهو يغويهم ويضلهم ضلالاً مبيناً.

٣) إن هذه العداوة مستمرة بين الشيطان والإنسان ما دامت روحه في جسده، وذلك لكي يوقعهم في ضلال الشرك والكفر والظلم ليعيشوا في شقاء دائم فيستحقوا اللعن والطرد من رحمة الله، وليكونوا معه في جهنم وبئس المصير.

٤) إن هلاك الأمم السابقة هو بسبب طاعتهم للشيطان فأغواهم فوقعوا في الظلم، والطغيان، والإشراك، والكفر.

٥) بيان حقيقة أن البعد عن دين الله هو بعد عن طريق السعادة الحقيقة.

٦) إن الظلم في الأرض هو أحد أركان الشقاء فهو يشمل كل المنكرات التي يفعلها الإنسان على الأرض.

٧) إن من أهم أسباب النجاة من الشقاء هو إخلاص العبادة لله تعالى، وذلك لتكون حاجزاً لهم من إقتراب الشيطان لهم والوقوع في الشقاء.

٨) إن حقيقة الدنيا أنها دار إبتلاء يمتحن فيها العباد، فمنهم من يقع في حبائل الشيطان فذلك الشقاء، ومنهم من ينجو منه فذلك الفوز العظيم، وهذا لكي يتبين الطيب من الخبيث.

٩) إن الشقاء مرض يصيب الأمم التي تصاب بداء الطغيان والإستبداد والظلم، مع ارتكاب المحرمات التي نهى الإسلام عنها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

التوصيات:

١) من التوصيات المهمة هي دراسة آيات القرآن الكريم التي تقع في صالح هذه الأمة.

٢) الإبتعاد عن مزالق الشيطان وهو سبب الشقاء.

٣) وجب التمسك بآداب القرآن الكريم التي جعلها الله تعالى نوراً للعباد.

المصادر

١- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).

٢- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢٠.

٣- تفسير السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١.

٤- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ، الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٦- تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، معدد الأجزاء: ١٢ جزءا.

٧- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٨- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠ هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة.

٩- في ظلال القرآن، لسيد قطب - رحمه الله -، علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عدد الصفحات: ٥٥٠.

١٠- فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، (ت: ١٢٥٠ه)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٤ه.

١١- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)،

الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ، عدد الأجزاء: ٩.

١٢- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

١٣- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأهلي أبو جعفر الطبري، (ت: ٣١٠ه) ت: احمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، الأجزاء ٢٤.

١٤- التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط١.

١٥- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.

١٦- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، عدد الأجزاء: ٣٠.

١٧- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

١٨- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الصفحات: ٥٠٢.

١٩- أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، ١٩٨٦م، عدد الصفحات: ٣٥٨.

٢٠- السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، ت: حسن عبد المنعم شلبي، أشراف: شعيب الأرنـاؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: (١٠ و٢ فهارس).

٢١- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١٨ (الأخير فهارس).

٢٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن

مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها - دار الكتاب العربي - بيروت - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، عدد الأجزاء: ١٠

٢٣- شرح السنة: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١٥.

٢٤- صحيح الجامع الصغير وزياداته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢.

٢٥- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، ت: أحمد محمد شاكر (جـ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء.

٢٦- السنة: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، ت محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠، عدد الأجزاء: ٢.

٢٧- الإبانة الكبرى لابن بطة: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ)، ت: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، عدد الأجزاء: ٩.

٢٨- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، ت: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، عدد الأجزاء: ١٨.

٢٩- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ)، ت: عبد الرحمن بن حسن بن قائد (وفق المنهج المعتمد من بكر بن عبد الله أبو زيد - رحمه الله -)، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإِصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ.

٣٠- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -

١٩٩٧م، عدد الصفحات: ٢٤٣.

٣١- السنة: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج الـمَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ)، ت: سالم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، عدد الصفحات: ١١١.

٣٢- مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ١٣.

٣٣- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، عدد الأجزاء: ١٠.

٣٤- مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، ت: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٣.

References:

1- The Collector of the Rulings of the Qur'an = Tafsir al-Qurtubi: Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Abi Bakr bin Farah al-Ansari al-Khazraji Shams al-Din al-Qurtubi (deceased: 671 AH), T: Ahmad al-Bardouni and Ibrahim Atfaish, Dar al-Kutub al-Masriya - Cairo, second edition, 1384 AH - 1964 AD, number of parts: 20 parts (in 10 volumes).

2- The Pulp in the Sciences of the Book: Abu Hafs Siraj Al-Din Omar bin Ali bin Adel Al-Hanbali Al-Dimashqi Al-Numani (deceased: 775 AH), T: Sheikh Adel Ahmed Abdel Mawjoud and Sheikh Ali Muhammad Moawad, Dar Al-Kutub Al-Alamia - Beirut / Lebanon, first edition, 1419 AH-1998 AD, number of parts: 20.

3- Tafsir al-Saadi: Abd al-Rahman ibn Nasir ibn Abdullah al-Saadi (deceased: 1376 AH), investigator: Abd al-Rahman ibn Mualla al-Luwaihaq, publisher: Al-Resala Foundation, first edition, 1420 AH-2000 AD, number of parts: 1.

4 - Liberation and Enlightenment, Muhammad al-Taher bin Muhammad bin Muhammad al-Taher bin Ashour al-Tunisi (deceased: 1393 AH), Tunisian Publishing House - Tunis, 1984 AH, volumes: 30 (and part no. 8 in twparts).

5- Adwa' al-Bayan fi Clarifying the Qur'an with the Qur'an: Muhammad al-Amin ibn Muhammad al-Mukhtar ibn Abd al-Qadir al-Jakni al-Shanqeeti (deceased: 1393 AH), publisher: Dar al-Fikr for printing, publishing and distribution, Beirut - Lebanon, edition: 1415 AH - 1995 AD.

6- Tafsir al-Manar: Muhammad Rashid bin Ali Reda (deceased: 1354 AH), Egyptian General Book Organization, 1990, multi-volume: 12 volumes.

7- The Ocean Sea in Interpretation: Abu Hayyan Muhammad bin Yusuf bin Ali bin Yusuf bin Hayyan Atheer al-Din al-Andalusi (deceased: 745 AH), investigator: Sidqi Muhammad Jameel, publisher: Dar al-Fikr - Beirut, edition: 1420 AH.

8- Quranic interpretation of the Qur'an: Abdul Karim Yunus Al-Khatib (deceased: after 1390 AH), Dar Al-Fikr Al-Arabi - Cairo.

9- In the Shadows of the Qur'an, by Sayyid Qutb - may God have mercy on him -, Alawi bin Abdul Qadir Al-Saqqaf, Dar Al-Hijrah for Publishing and Distribution, second edition, 1416

AH – 1995 AD, number of pages: 550

10- Fath al-Qadeer: Muhammad bin Ali bin Muhammad bin Abdullah Al-Shawkani Al-Yamani, (d. 1250 AH), Dar Ibn Kathir, Dar Al-Kalam Al-Tayeb, Damascus, 1st Edition, 1414 AH.

11- Sahih al-Bukhari: Muhammad bin Ismail Abu Abdullah al-Bukhari al-Jaafi, investigator: Muhammad Zuhair bin Nasser al-Nasser, publisher: Dar Tuq al-Najat (illustrated from the sultaniyya with the addition of numbering Muhammad Fouad Abd al-Baqi), first edition, 1422 AH, number of parts: 9.

12- Sunan Abi Dawood: Abu Dawood Suleiman bin Al-Ash'ath bin Ishaq bin Bashir bin Shaddad bin Amr Al-Azdi Al-Sijistani (deceased: 275 AH), T: Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, Al-Asriya Library, Saida – Beirut, number of volumes: 4.

13- Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an: Muhammad bin Jarir bin Yazid bin Katheer bin Ghalib al-Ahli Abu Jaafar al-Tabari, (d. 310 AH) T: Ahmed Muhammad Shaker, Al-Resala Foundation, 1st Edition, 1420 AH – 2000 AD, parts 24.

14- Intermediate interpretation: Mohamed Sayed Tantawi, Dar Nahdet Misr for printing, Cairo, 1st Edition.

15- Interpretation of the Great Qur'an: Abu al-Fida Ismail bin Omar bin Katheer al-Qurashi al-Basri and then al-Dimashqi (deceased: 774 AH), T: Sami bin Muhammad Salama, Dar Taiba for Publishing and Distribution, second edition 1420 AH – 1999 AD, number of parts: 8.

16- Tafsir al-Maraghi: Ahmad ibn Mustafa al-Maraghi (deceased: 1371 AH), Mustafa al-Babi al-Halabi & Sons Library and Printing Company in Egypt, first edition, 1365 AH – 1946 AD, number of volumes: 30.

17- Keys tthe Unseen = The Great Interpretation: Abu Abdullah Muhammad bin Omar bin Al-Hassan bin Al-Hussein Al-Taymi Al-Razi nicknamed Fakhr Al-Din Al-Razi Khatib Al-Rai (deceased: 606 AH), House of Revival of Arab Heritage – Beirut, third edition – 1420 AH.

18- Sahih al-Adab al-Mufrad by Imam al-Bukhari: Muhammad ibn Ismail ibn Ibrahim ibn al-Mughira al-Bukhari, Abu Abdullah (deceased: 256 AH), edited and commented on: Muhammad Nasir al-Din al-Albani, Dar al-Siddiq for Publishing and Distribution, fourth edition,

1418 AH - 1997 AD, number of pages: 502.

19- Literature of the world and religion: Abu al-Hasan Ali bin Muhammad bin Muhammad bin Habib al-Basri al-Baghdadi, known as al-Mawardi (deceased: 450 AH), Dar Al-Hayat Library, edition: nedition, 1986, number of pages: 358.

20- Al-Sunan Al-Kubra: Abu Abd al-Rahman Ahmad bin Shuaib bin Ali al-Khorasani, al-Nasa'i (deceased: 303 AH), T: Hassan Abdel Moneim Shalabi, supervision: Shuaib al-Arnaout, presented thim: Abdullah bin Abdul Mohsen al-Turki, Al-Resala Foundation - Beirut, first edition, 1421 AH - 2001 AD, number of parts: (10 and 2 indexes).

21- Al-Ihsan in the approximation of Sahih Ibn Habban: Muhammad bin Hibban bin Ahmed bin Hibban bin Muadh bin Ma'bad, Al-Tamimi, Abu Hatim, Al-Darimi, Al-Basti (deceased: 354 AH), arranged by: Prince Alaa Al-Din Ali bin Balban Al-Farsi (deceased: 739 AH), T.: Shuaib Al-Arnaout, Al-Resala Foundation, Beirut, first edition, 1408 AH - 1988 AD, number of parts: 18 (the last indexes).

22- The ornament of the saints and the classes of the righteous: Abu Naim Ahmed bin Abdullah bin Ahmed bin Ishaq bin Musa bin Mahran Al-Asbahani (deceased: 430 AH), Al-Saada - next tthe governorate of Egypt, 1394 AH - 1974 AD, then photographed by several houses, including - Dar Al-Kitab Al-Arabi - Beirut - Dar Al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, Beirut - Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - Beirut (edition 1409 AH without investigation), number of parts: 10

23- Explanation of the Sunnah: Muhyi al-Sunnah, Abu Muhammad al-Husayn ibn Mas'ud ibn Muhammad ibn al-Fara al-Baghawi al-Shafi'i (deceased: 516 AH), T: Shuaib al-Arna'ut-Muhammad Zuhair al-Shawish, Islamic Bureau - Damascus, Beirut, second edition, 1403 AH - 1983 AD, number of volumes: 15.

24- Sahih al-Jami' al-Saghir wa'l-Ziyada: Abu 'Abd al-Rahman Muhammad Nasir al-Din, ibn al-Hajj Nuh ibn Najati ibn Adam, al-Ashqwadari al-Albani (deceased: 1420 AH), publisher: al-Maktab al-Islami, number of volumes: 2.

25- Sunan al-Tirmidhi: Muhammad ibn Isa ibn Surah ibn Musa ibn al-Dahhak, al-Tirmidhi, Abu Isa (deceased: 279 AH), T: Ahmad Muhammad Shakir (vol. 1, 2), Muhammad Fouad Abd

al-Baqi (vol. 3), Ibrahim Atwa Awad, a teacher at Al-Azhar Al-Sharif (vol. 4, 5), Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Press Company - Egypt, second edition, 1395 AH - 1975 AD, number of parts: 5 parts.

26- Al-Sunnah: Abu Bakr ibn Abi Asim, Ahmad ibn Amr ibn al-Dahhak ibn Mukhled al-Shaibani (deceased: 287 AH), d. Muhammad Nasir al-Din al-Albani, Islamic Bureau - Beirut, first edition, 1400, number of volumes: 2.

27- The Great Ibanah of ibn Battah: Abu Abdullah Obaid Allah bin Muhammad bin Muhammad bin Hamdan Al-Akbari known as Ibn Batta Al-Akbari (deceased: 387 AH), T: Reda Muti, Othman Al-Ethiopian, Yusuf Al-Wabel, Al-Waleed bin Saif Al-Nasr, Hamad Al-Tuwaijri, Dar Al-Raya for Publishing and Distribution, Riyadh, number of parts: 9.

28- Musnad al-Bazzar published in the name of al-Bahr al-Zakhar: Abu Bakr Ahmad bin Amr bin Abdul Khaliq bin Khallad bin Ubayd Allah al-Atki known as al-Bazzar (deceased: 292 AH), T: Mahfouz al-Rahman Zayn Allah, (achieved parts 1 t9), Adel bin Saad (achieved parts 10 t17), and Sabri Abdul Khaliq al-Shafi'i (achieved part 18), Library of Science and Governance - Medina, edition: First, (started in 1988 and ended in 2009), number of parts: 18.

29- The Key tthe House of Happiness and the Publication of the Guardianship of Knowledge and Will: Abu Abdullah Muhammad bin Abi Bakr bin Ayyub Ibn Qayyim al-Jawziyyah (691 AH - 751 AH), T: Abd al-Rahman bin Hassan bin Qaid (according tthe approach adopted by Bakr bin Abdullah Abu Zayd - may God have mercy on him -), reviewed by: Muhammad Ajmal al-Islahi, Suleiman bin Abdullah al-Omair, Dar Alam al-Mufa'id, Makkah Al-Mukarramah, edition: First, 1432 AH.

30- The adequate answer for those whasked about the panacea or the disease and the medicine: Muhammad bin Abi Bakr bin Ayyub bin Saad Shams al-Din Ibn Qayyim al-Jawziyya (deceased: 751 AH), Dar al-Maarifa - Morocco, first edition, 1418 AH - 1997 AD, number of pages: 243.

31- Year: Abu Abdullah Muhammad bin Nasr bin Al-Hajjaj Al-Marwazi (deceased: 294 AH), T: Salem Ahmad Al-Salafi, Cultural Books Foundation - Beirut, first edition, 1408, number of pages: 111.

32- Musnad Abi Ya'la: Abu Ya'li Ahmad bin Ali bin Al-Muthanna bin Yahya bin Isa bin Hilal Al-Tamimi, Al-Mawsili (deceased: 307 AH), T: Hussein Salim Asad, Dar Al-Mamoun for Heritage - Damascus, first edition, 1404-1984, number of volumes: 13.

33- The Middle Dictionary: Suleiman bin Ahmed bin Ayyub bin Mutair al-Lakhmi al-Shami, Abu al-Qasim al-Tabarani (deceased: 360 AH), T: Tariq bin Awad Allah bin Muhammad, Abdul Mohsen bin Ibrahim al-Husseini, Dar al-Haramain - Cairo, number of parts: 10.

34- Mishkat al-Masabih: Muhammad ibn ʿAbd Allah al-Khatib al-ʾUmari, Abu ʿAbd Allah, Wali al-Din, Tabrizi (deceased: 741 AH), T: Muhammad Nasir al-Din al-Albani, Islamic Bureau - Beirut, third edition, 1985, number of volumes: 3.